A CASE AGAINST SATAN

قضية ضد الشيطان

راي راسِل

ترجمة: شيرين هنائي

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمات

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

رواية..

قضية ضد الشيطان

تأليف: راي راسِل

ترجمة: شيرين هنائي

نبذة عن الرواية

كل ما كان يحكى عن الأصوات المرعبة المنبعثة من مسكن القساوسة لم يكن صحيحًا، أو حتى قريبًا من الصحة، ففي داخل إحدى حجراته توجد مراهقة مقيدة، تثير الفزع والرعب في نفوس الحاضرين بما تعرفه عن أسرارهم.. فهل كان الشيطان يسكنها حقًا، أم هي بريئة والشيطان واحد ممن يدعون مساعدتها؟

شكر خاص من المُترجمة لدكتور «ماريًا ألفي» لمراجعتها النصوص المسيحية المذكورة في الرواية.

جزيلُ الشكر والمحبة.

-1-
وجهي منتصف الليل

ربما لأن الله قد صار في مُخيلتنا كـ «سانتا كلوز»، ملتحيا، بشوشًا، تلمع عيناه ببسمةٍ بريئةٍ من خلف نظَّارته الطبية. أو ربما لأنهم يحثوننا بعصا راعٍ كالنعاج عبر إعلانات التلفاز، كي نرعى جميعًا في حظيرة العبادة. أو ربما لأن اللَّوحات الدينية الدعائية المكتوبة بعبارات جزلة تؤكد لنا أن العائلة التي تعبد الله سويًّا لا تفترق. أو ربما أن الدين قد صار كيانًا غير مُقنعٍ من نورٍ بلا ظلمات، حلوى تقيَّة شهية مُخدِّرة، حتى إن كارل ماركس نعته بـ (أفيون الشعوب). أو ربما لأنهم أقنعونا أنه بدون الحروب والقتل والمجاعات والفزع، لن يكون هناك حُبٌّ أو فنٌّ أو إيمانٌ خالصٌ.

ربما لكل تلك الأسباب أو بعضها، وربما لأسباب أخرى لم نُخلَق لنفهمها، مَثَل كاهن من الرومان الكاثوليك أمام المُساءلة، في نهاية أسبوع مروع من النصف الثاني من القرن العشرين.

بدأت مُحاكمته بسرد عددٍ من الوقائع البسيطة التي تستحق التوقف عندها. منها مثلًا: أن أنوار الردهة في مسكنُ القساوسة بكنيسة «الملاك ميخائيل» كانت مُتقدة على أعلى شِدة تيارٍ ممكنٍ عند منتصف ليلة نهاية الأسبوع إيَّاها. وكان الموقف غريبًا كون ساكني المنزل من الكهنة يستيقظون مبكرًا ويهجعون إلى مضاجعهم مُبكرًا، فما سبب سطوع الأضواء ليلتها؟

من الملاحظ كذلك، أن ثمة شخصين كانا يذرعان الممر أمام المنزل جيئةً وذهابًا، وكأنهما ينتظران شخصًا أو حدثًا على وشك الوقوع. أحد الشخصين كان خمسينيًّا، ضخم الجسد، أما الآخر فكانت مُراهِقةً جميلةً، تعقص شعرها على هيئة ذيل حصان.

حين فُتحَ بابُ المنزل أخيرًا، تخفَّى الشخصان وسط الظلال، بينما خرج كاهنٌ، عابرًا الضوء الأصفر المنُسكب من فرجة الباب، ماشيًا نحو سيارة من طراز بويك، واقفة على مَبعُدة، ثم ركبها وابتعد. وبمجرد ابتعاد الكاهن، سار الشخصان نحو باب المنزل. تراجعت الفتاة للحظة، فأمسك الرجل بذراعها وصاح بضع كلمات غاضبة، لكن الفتاة فرَّت من قبضته وعَدَت نحو باب المسكن. فكَّر الرجل أن يناديها، لكنه تراجع كي لا يعلو صوته في ليلة هادئة كتلك، وبدلًا عن ذلك، سار خلفها بهدوء.

* * *

كانت ليلة جمعة من أواخر شهر سبتمبر، وكانت ليلة دافئة بلا سبب. البعض كان ليقول أن اليوم كان صبيحة السبت، كون الوقت قد جاوز منتصف الليل، لكن الأب

جريجوري سارجِنت كان له رأيٌ آخر. فقد عاد هو وسَلفه الأب جيمس هالوران إلى المنزل قبل وقتٍ قصيرٍ، حيث رفع الأب سارجِنت قنينة خمرٍ وسأل رفيقه:

- أتريد بعض البراندي أيها الأب هالوران؟ لقد كان يومًا طويلًا.

- كلا، أشكرك.

- هل تمانع لو شربتُ أنا؟

- كلا.. بالطبع كما تشاء.

صبَّ الأب سارجِنت لنفسه مقدارًا قليلًا وأضاف مبتسمًا:

- أستشعر رفضًا في صوتك أيها الأب.

- آسفٌ لذلك.

- أعرف سرَّ رفضِك، كوني أكسر القواعد. لكن دعني أشرح لك.. أعرف أننا ممنوعون من الاقتراب من تلك المشروبات حتى الوقت الذي يلي قداس الصباح على الأقل. وكوننا جاوزنا منتصف الليل، فهذا يعني أننا عمليًّا في الصباح، أليس هذا هو سبب رفضك للشرب؟

- حسنًا...

صاح الأب سارجِنت في انتصار:

- أها! هذا هو سرُّ رفضك! أنت دقيق في حسابات الزمن، وحادٌّ كذلك.

- وأنت؟

كان من شيم الأب سارجنت أن يصمت قليلًا قبل أن يلقي بخلاصة أفكاره؛ لذا قال سارجِنت بعد هنيهة:

- الوقت كله لله بالطبع، لكن وِفقًا لتوقيتات الرب وصلواته، فلن يأتي الغدُ قبل...

ونظر إلى ساعته مردفًا:

- قبل سبع وخمسين دقيقة!

ثم رفع كأسه إلى شفتيه وجرع البراندي. حاول الأب هالوران أن يندمج في أجواء مزحة رفيقه فقال:

- أنت بارع حقًّا في فنون الإقناع!

كان جريجوري سارجِنت يعلم أن البهجة لم تجد في نفس رفيقه مُتسعًا، فقد كان الأب هالوران يفتقر إلى روح الدعابة، بالإضافة إلى ولوجِه حقبة الستينيات من العمر، حيث كان يكبُر جريجوري بخمسة عشر عامًا. كذلك، فالأب هالوران متعبًا، مثله كمثل جريجوري. فقد كانا عائدين للتو من سلسلة زيارات لرعايا الكنيسة، تهدف لتقديم الأب جريجوري سارجِنت إلى أبناء إبرشيته.

قال جريجوري:

- من المؤسف كونك مضطرًا للرحيل قبل يوم عيد الإبرشية.

- أجل.. فلطالما استمتعت بعيد الملاك ميخائيل؛ بقدَّاسه الخاص، والموسيقى المميزة. لكن ملجأ اليتامى يحتاج إلى من يتولاه في أسرع وقت.

- أواثقٌ من أنَّك لا تريد تمضية الليلة هنا؟ الوقت متأخرٌ للغاية.

- لو بدأت في القيادة الآن، فسأصل إلى الملجأ قبيل الفجر في وقتٍ مناسبٍ لبدء عملي. هم يتوقعون مجيئي صباحًا ولا أريد أن يخيب أملهم فيَّ من أول يومٍ. لقد أضعت وقتًا طويلًا في ترتيبات مغادرة المكان هنا.

- لكن متى ستنام؟

- أنا لا أنام كثيرًا هذه الأيام.

كاد جريجوري أن يصرح بأنه هو الآخر لا ينام، لكن ماذا يُثقل كاهلي هالوران؟ سأل جريجوري:

- هل تظن أن الملجأ سيروق لك؟

- أعتقد أنني سأكون مفيدًا هناك. هذا هو كل ما يُهمني.

- أتفهَّم رغبة المرء في الفرارِ من هنا بأي طريقة!

قال الأب هالوران بسرعة:

- أبدًا. الناس هنا طيبون إجمالًا، فيما عدا بعض المضايقات بالطبع. على سبيل المثال، كاتب المنشورات هذا، الرجل المدعو تالبوت؟

- الإبرشية لا تكتمل إلا بوجود هؤلاء.

- لديك حق. لقد كوَّنت صداقاتٍ هنا، وكنتُ سعيدًا. بعض المضايقات الصغيرة لا تهمني.

قال جريجوري:

- ربما تهمك بعض المضايقات غير العادية؟

نظر الأب هالروان إليه بغتة وتساءل:

- ماذا تعني؟

ابتسم جريجوري وقال:

- أعني مدير الأعمال الذي التقينا به اليوم على سبيل المثال. ماذا كان اسمه؟ جلينكانون؟

- أجل.

- أستطيع أن أرى أن لديه مشكلة فريدة. هل سبق له أن تقدّم لك بفكرة إرسال اعترافه مُسجلًا بالبريد أو عبر الديكتافون، وتَلقّي الغفران الذي ستمنحه إياه عبر الهاتف؟

أومأ الأب هالوران برأسه وقال:

- مرة أو مرتين. هو رجل ذو عزمٍ من الصعب تثبيطه.

- والصيدلي؟ هل يتوقع منك تقديم خدمات ممثالة له، أو توصيل العلاج بدلًا منه؟

- لا تقسُ عليهم. هو فقط قد علم أنني سأزور واحدًا من أبناء الإبراشية المرضى، وهو زبون لدى الصيدلي. لا أمانع في توصيل الأدوية. تلك الإبرشية تشبه مدينة صغيرة. أنت تعرف هذه الأمور..

- أجل، أعرف.

- وهذا هو ما يجعلها إبرشية ذات طابع خاص.

أكمل جريجوري حديثه وقال:

- وهذا السيد المُسن، السيد سويربي.. أنا ممتن كونك مهَّدت لي الطريق لمعرفته. يبدو أن أمر إقامة ثلاثة مراسم زفاف له في أماكن وأزمة متفرقة كان ثقيلًا عليك. أكان يجب أن يكلِّفك كل تلك المشقة كي يحيا في تباتٍ ونبات ثلاث مرات؟!

- أعترف أن هذا كان غريبًا فعلًا.

- وماذا عن عائلة بارلو؟ يبدو أن الزوج لطيف المعشر وهادئ، أما زوجته فقط أذهلتني، أهي مستبدة هكذا دومًا؟

- السيدة بارلو سيدة محترمة، وذات شخصية قيادية وسط سيدات الإبرشية. كذلك تهتم بالنشاطات الاجتماعية. شخصية جذابة.

بعد هنيهة صمتٍ قال الأب هالوران:

- لستُ قلقًا على عائلة بارلو، بل كل ما يقلقني هو عائلة جارث.

- أليست هي تلك لعائلة التي زُرناها في نهاية اليوم؟ الرجل وابنته؟

- أجل. المشكلة صعبة ومعقدة. الفتاة في السادسة عشر، وأمها متوفاة. شخصية مضطربة عقليًّا وتنتابها نوبات تبدو كصرع. لطالما نصحت أباها أن يعرضها على اختصاصي نفسي و..

ابتسم الأب جريجوري وهو يستعيد التفاصيل: مراهقة في السادسة عشر تنتابها نوبات صرع. في سن صغير كهذا، تُعزى تلك النوبات إلى أسباب هيسترية جنسية. الجنس.. هذه الرغبة القوية البكر التي تجاهد للتحرر قد تتخذ أشكالًا عدة للتعبير عن سَطوتِها.

لطالما كان جريجوري يعتقد أن أي نهرٍ متدفق ينتهي إلى شلال هادر.

قد يقف شخصان أمام هذا النهر القوي، وينتاب كلا منهما شعور مخالف عن الآخر. فمنهما من يُذعَر من تدفق النهر ويرغب في إيقافه رغم عنفوانه، وحين يفشل في ذلك، فإنه يشيح بنظره عنه كي لا يضطر للنظر إليه والاعتراف بوجوده. ومنهما من يقول في نفسه: يا لها من قوة مذهلة، برية، جامحة. يمكنني استغلال تلك القوة فيما هو صالح. يمكنني توليد الكهرباء وري الأراضي.

ردّ الفعل الأخير تجاه النهر، هو ما يتبناه الفكر الكاثوليكي تجاه الجنس، أما الرأي الأول فهو ما يعتنقه البروتستانت. لكن جريجوري كان يعتبر وجهة نظره مُتحاملةً على الطرفين، فالتقسيم الفكري ليس بهذه الحدة.

نظر الأب هالوران إلى ساعته وقال:

- أعتقد أن عليَّ الرحيل، الوقت قد تأخَّر ولدي مسافة طويلة لأقطعها.

- هل أعددت حقائبك؟

- حقائبي مُعَدَّة وتنتظرني في السيارة. أراك على خير أيها الأب سارجِنت.

- أواثقٌ أنك لا تريد المكوث هنا حتى الصباح؟

- لا أستطيع فعًلا.

صاحب جريجوري رفيقه حتى الباب وهتف:

- إلى اللقاء أيها الأب هالوران، وأشكرك مجددًا كونك سهَّلتَ عليَّ تولي المنصب من بعدك. أنا ممتنٌ للغاية.

عند الباب، التفت الأب هالوران وأضاف فجأة:

- اسمها سوزان.

- عمن تتحدث؟

- ابنة جارث، التي تنتابها النوبات.

- آه.. أجل، سوزان. سأتذكر اسمها.

- كنت أتمنى لو أن لدي متسعًا من الوقت كي أعرض عليك مشكلتها بتفاصيل أكثر، وأخشى أنني لم أستطع أن أقدِّم لها العون الكافي. أنت رجل ذكي، متبحرٌ في علوم النفس. لقد قرأت بعضًا من مقالاتك المنشورة وأرى أنك مؤهلٌ تمامًا لمساعدة الفتاة. ارفق بها.. رجاءً.

- سأفعل.

صافحَ الأب هالوران جريجوري للمرةِ الأخيرة، واسترجع جريجوري أبناء الرعية غريبي الأطوار الذين قابلوهم اليوم، وتبادلا ابتسامتين باردتين.

بمجرد أن انغلق الباب خلف الأب هالوران، اعتل مزاج جريجوري، فقذف بآخر قطرات كأس البراندي في حلقه، وتهاوى على كرسي، دافنًا وجهه بين كفيه لدقائق.

ثم رفع وجهه ونظر إلى صالةِ مقره الجديد. تتناثر في أرجاء الحجرة المزهريات، ويكسو الحوائط ورق الحائط المنتشر في كل بيوت الطبقة المتوسطة، تُزيِّنه لوحاتٌ لمواضيع دينية. قام من كُرسيه وتناول كتاب الأدعية من فوق الطاولة جواره، ثم جلس إلى مكتبه وخلع معطفه حين شعر بدفء الجو.

شعر بصعوبة في التركيز، فكان عقله ينجرف بسهولة وسط تداعي الأفكار وصفحات الكتاب، ولم يستطع سوى المقارنة بين هذا المنزل وبين مسكنُ القساوسة الخاص بكنيسة القديس فرانسيس، بحجراته الواسعة الفاخرة الزاهية، وديكوراته التي توازن بين الكلاسيكية والمعاصرة. تذكَّر كذلك رفاقِ إبرشيته ورعاياها؛ رجال ونساء مثقفين، كُتَّاب، مخرجي مسرح، موسيقيين، معلِّمين. تذكَّر تجمُّعات العشاء الراقية بعد العروض المسرحية، الأطعمة الفاخرة، الخمور المُعتَّقَة، ساعات النقاش المُثمر الهادئ، خطط التعاون مع أصدقاء من المُحللين النفسيين لإصدار كتابٍ مشتركٍ. كل هذا قد ذهب وتناثر مع الريح.

كان عليه أن يبدأ من الصفر، في إبرشيةٍ صغيرةٍ، وسط أُناسٍ بسطاء لا يُقارَنون بمن كان يعرفهم. كان عليه أن يبدأ من الصفر في سن الخامسة والأربعين.

فكَّر جريجوري أن الموسيقى ربما تساعده، فقامَ وضغطَ زرَّ جهاز تشغيل الموسيقى، وظلَّ يبحث في مجموعة المقطوعات المتوافرة. كان يحب الأغاني الإيطالية القديمة، لكنها لم تكن من ضمنِ المتاح، فانتقى مقطوعة «نوافذ الكنيسة» للموسيقار راسبيجي، ووضعها في جهاز التشغيل.

جلس وفتحَ الكتاب ثانيةً، حين هدهدته أُولَى مقاطع الموسيقى والمسماة «رحلة إلى مصر» بأنغامها الرقيقة الليلة، التي وجد فيها جريجوري سلامًا خاصًا.

«رحلة إلى مصر».. هودج يسير في الصحراء تحت سماء مُرصعة بالنجوم..

أغلق عينيه وترك الدفة للموسيقى تُذهب عنه توتره وتُخلي عقله المُنهك حتى انتهى المقطع الأول. أفاق من استرخائه مع بداية المقطع الثاني والمُسمَّى «رئيس الملائكة ميخائيل»، وقد هزه عنفوان الموسيقى المفاجئ الذي يمثِّل معركة الملاك ميخائيل وجنوده ضد التنين وأعوانه لطرده من السماوات، حيث لم يعد لهم مكان.

لم يعد لهم مكان في السماوات..

دمعت عيناه والموسيقى العُلوية تلف جريجوري وتسحقه كغضبٍ إلهي. همس:

- يا إلهي..

وصلت الموسيقى ذورتها، وفعلت به أفاعيلها حتى غاب عن دنياه وسط أمواجها ولم يسمع صوت جرس الباب.

-2-
نيرانٌ سوداء

كانت مُدبِّرة المنزل نائمةً حين قام جريجوري ليفتح الباب بنفسه، بعد أن أغلق الموسيقى الملحمية. سار نحو الباب، مارًا بخزانة ملأى بالمشاجب والمظلات، وفكر في أن الزائر ربما كان هو الأب هالوران وقد نسي شيئًا من أغراضه.

فتح الباب الثقيل ليبصر رجلًا ضخمًا أمامه يهتف:

- أعرف أن الوقت متأخرًا أيها الأب، لكن الأمر بخصوص الفتاة معي.

الفتاة التي كان يشير إليها الزائر الليلي كانت في عمر الدراسة المدرسية، وقد أشاحت بعينها بعيدًا كي لا تلتقي بعيني جريجوري. وجد الأخير نفسه مدفوعًا لقول:

- لا عليك، إن كان الأمر هامًا.

- هو هامٌ بالفعل.. أمر طارئ.

قادهما جريجوري إلى الردهة، وطلب منهما الجلوس، لكن الفتاة لم تجلس، وذهب جريجوري ليرتدي معطفه وهو يقول:

- أعتقد أنكما آل جارث، أليس كذلك؟ سوزان و...

قال الرجل:

- وروبرت.

- سأحفظ اسميكما على الفور. لقد غادر الأب هالوران منذ قليل، وكان يتحدث عنكما قبل رحيله. غريب هذا.

كانت المصادفة عاديةً، لكنَّ شعورًا غامضًا لدى جريجوري أنها مصادفة من النوعية المُريبة التي يصادفها طيلة حياته. فكان يخطر بباله الأب فُلان، ليجد هذا الأب يتصل به بعد دقائق. أو كان يجاهد كي يتذكَّر آيةً من الكتاب المُقدس، ليسقط كتابه أرضًا مفتوحًا على الصفحة التي تحوي تلك الآية. لكن بعد كل هذا، لم يكن جريجوري يظنُّ في نفسه موهبة أو فِراسةً خاصةً، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التعجُّب للمصادفات الغريبة وتكرارها كذلك.

ابتسم جريجوري وسأل روبرت جارث:

- كيف يمكن لي أن أساعدك؟

أمر جارث ابنته بالجلوس، ثم قال:

- كنا نسير جيئةً وذهابًا في الممشى خارج المنزل، ورأينا الأب هالوران بالداخل، ولم نُرِد أن نقتحم خلويتكما فانتظرنا حتى رحل. حين قدمك الأب هالوران إلينا

اليوم، توسمت فيك سوزان الخير، وأنا كذلك. ثم لاحقًا.. ذكرتَ أن الأب هالوران قد أخبرك بشيء عن ابنتي؟

- لم يقل الكثير.

أومأ جارث مردفًا:

- حسنًا.. نصحنا الأب هالوران بزيارة طبيب.. اختصاصي نفسي. قال كذلك إنه لا يعرف كيف يساعدها. أعتقد أنه كان يظنها.. مجنونة..

ثم أردف سريعًا:

- بالطبع لا ألوم الأب هالوران، أعني.. أن لديه أسبابًا دفعته لهذا الاعتقاد خاصة بعد ما حدث.

- وماذا حدثَ تحديدًا؟

- ألم يخبرك؟

- هو فقط أخبرني ب...

شعر جريجوري بعينيّ الفتاة تتفحص وجهه، فأضاف في ارتباكٍ:

- هل يمكن أن تمكث سوزان في غرفة أخرى ريثما ننهي حديثنا؟

لا زالت الفتاة تُسلِّط عينيها على عينيه ككشافين، ثم قالت بصوت هادئ خجول:

- كلا أيها الأب، أريد أن أسمع، لا ينبغي أن تخفوا عني شيئًا.

تفاجأ جريجوري بحديثها المباشر، فقال:

- حسنًا..

ثم التفت إلى والد الفتاة قائلًا:

- سيد جارث، أخبرَني الأب هالوران أن الفتاة مضطربة للغاية، تنتابها نوباتٌ من وقتٍ لآخر، لذا أشار عليك بزيارة للطبيب.

أوضحت سوزان:

- طبيب نفسي.

- أجل.. بالضبط.

تساءل السيد جارث:

- وهذا هو كل ما أخبرك به؟

- أجل. وهل استشرتما طبيبًا نفسيًّا؟

أجابت سوزان:

- كلا.

أكمل أبوها:

- كانت تريد الذهاب إلى طبيبٍ بالفعل، لكن.. أولًا، الحقُّ أيها الأب أن زيارة الأطباء النفسيين تُكلِّف الكثير من المال، ولا يسعني توفير هذه المبالغ. ثانيًا...

قاطعته سوزان:

- أبي!

- ثانيًا، ابنتي ليست مجنونةً. لا يوجد في عائلتي أو عائلة أمها -رحمها الله- من لديه أمراض عقلية، فكيف بالله تُجنّ فجأة بلا سببٍ؟ ثم بخصوص تلك النوبات التي تنتابها.. لديَّ خالٌ كان يعاني نوباتٍ مُمثالة، أتراه صرعًا؟ لذا فقُلت أن سوزي ورثت المرض، فاستشرنا طبيبًا عاديًّا.. طبيبين في الواقع، فحصها كلاهما باستخدام جهاز كهربي ما...

- مُخطط كهربية الدماغ..

- هذا هو.. ولم يجدا لديها أيَّ مشاكل. لا تعاني من أي صرع. هكذا أقرَّ الطبيبان.

قالت سوزان في إصرار:

- وأقرا كذلك بضرورة ذهابي لطبيبٍ نفسيٍّ.

طرأت فكرة ببال جريجوري فقال:

- سيد جارث، أتفهَّم العائق الاقتصادي الذي يحول دون زيارتكما للطبيب النفسي، لكن يمكنني المساعدة في هذا الأمر. لديَّ صديق مختص نفسي ممتاز، يمكننا...

قال جارث مقاطعًا:

- كلا.. لا لزوم لذلك.

- أنا واثق من أنني قادر على إقناعه بتبني الحالة بلا مقابل تقريبًا.

- المال ليس العائق الوحيد يا سيدي، ألا ترى المشكلة؟ كيف أرسل ابنتي لطبيب مجانين؟! هي ليست مجنونة!

- الأمر غير محدود بكونها مجنونة، الطبيب النفسي مُختص بـ...

كان الجدال بلا طائل، فقد أغلق جارث عينيه وزمَّ شفتيه، وراح يهز رأسه يُمنةً ويسرةً في رفضٍ.

- كلا.. أنا أعرف ما يفعله أطِباء المجانين هؤلاء في عياداتهم.. يُخدِّرون الناس ويسحبون منهم أسرارهم.. يَحثُّونهم على الحديث والبوح بكل شيء بلا أي تمييز بين ما يصح وما لا يصح قوله. يريدون المريض أن يتحدث عن كل شيء، حتى تلك الأمور المُخجلة التي تطرأ على بال المرء. لن أسمح لفتاةٍ في عمرها أن تمر بتجربةٍ كهذه، ولا أؤمن بجدوى تلك الجلسات من الأساس. في الحقيقة أنا مُتعجبٌ

للغاية من نصيحة الأب هالوران بأن نزور طبيبَ مجانين، أليست الكنيسة ضد كل تلك الممارسات المُشينة؟

قال جريجوري ببساطة:

- الكنيسة بالطبع لا توافق على بعض الممارسات، لكن...

- أنت قُلتها.. لا توافق!

- لا توافق على بعض الممارسات، ولا تمانع فيما يتوافق مع الدين منها.

ودَّ جريجوري لو يحكي عن الأب ديفلين في شيكاجو، وهو قس كاثوليكي ومُحلل نفسي في آنٍ. ودَّ القول بأن الكنيسة لا تُصدر أحكامًا مُتسرعة، بل تمنح نفسها أعوامًا بل وقرونًا من المباحثات قبل أن ترفض أو تُحرِّم أمرًا دنيويًّا. فقد اتخذ أمر إعلان جان دي آرك -المجاهدة الفرنسية- قديسة أربعمائة سنة من المباحثات والفحص. لذا فمِنْ غيرِ المعقول أن تتخذ الكنيسة موقفًا قطعيًّا من علم حديثٍ كعلم النفس. لكنه كان يعرفَ أن كلماته تلك لن تجد آذانًا مُصغيةً، فقد بدا له أن جارث قد حزمَ أمرَه، لذا قال جريجوري:

- ما الفرق يا سيدي بين عيادة الطبيب النفسي وحجرة الاعتراف بالكنيسة؟

- لماذا...

- الاختلاف كبير، أنا لا أزعمُ أنهما نفس الشيء، ولا أن الكنيسة يمكن أن تُستبدَل بطبيب، لكن عندما تحدثتَ عن...

قاطعه جارث:

- أيها الأب، وجب عليَّ أن أخبرك لمَ جلبت سوزان إلى هنا.

- أنا أسمعك. تفضل.

قال جارث:

- الليلة، وفور مغادرتك والأب هالوران منزلنا، دخلت إلى حجرة سوزان، ولن تصدق ما وجدتها تفعله.

- ماذا كانت تفعل؟

- كانت تجمع أغراضها.. تستعد للهرب! سألتها: إلى أين تذهبين؟ قالت: أي مكان لا أراك فيه! سألتها: ولمَ؟ قالت: لأنني أريد استشارة طبيب نفسي، وأنت لن تسمح لي بذلك. ما رأيك في هذا التصرف أيها الأب؟ أن تهرب بلا أموال وتجوب الشوارع بحثًا عن طبيب مجانين! بالكاد أقنعتها بالمجيء هنا للتحدُّث معك. أعرف أن الوقت مُتأخرٌ، لكنني ما كنت لأزعجك لولا أن الأمر بالفعل طارئ. هي ستستمع إليك.

واستدار نحو ابنته وقال:

- اسمعي كلام الأب، وسيخبرك أنني مُحقٌّ.

نظرت الفتاة بعينيها الزرقاوين إلى جريجوري وتساءلت:

- أهو على حق يا أبتاه؟

ابتسم لها جريجوري، بينما ازداد توتر جارث، ولم يجد الأول ما يقوله سوى:

- بالطبع هو مُحِقٌّ.. بشأن أمر هروبك وحدك وبلا مالٍ أو مأوى. ألا توافقينني؟

- لكن على أحدهم أن يساعدني يا أبتاه!

- هذه هي مهمتي. لو تناقش ثلاثتنا في هذا الأمر لوصلنا لحلٍ مُرضيٍّ. على سبيل المثال فصديقي..

قال جارث في حزم:

- لن تذهب لطبيبٍ نفسيٍّ.

صارع جريجوري رغبة عارمة في إهانة الرجل، لكنه قال أخيرًا:

- سيد جارث، أنا أحاول أن أساعدكما...

لم يسمح له جارث بأن يكمل عبارته، وصاح في جنون:

- أقول لَك إنها لا تحتاج إلى تلك القذارات بالذات.. كفانا قذارات!

صمت جارث فجأة وكأنما باحَ بسرٍ، التقط جريجوري الخيط وسأله:

- قذارات؟ أي قذارات؟

- لا عليك.

قالت سوزان في هدوء:

- أبي، أعتقد أنه من الأفضل إخباره. إن لم تحكِ له سأحكي أنا.

صاح جارث في ذهول:

- كيف تجرؤين؟! كيف تجرؤين على الحديث في هذه الأمور بنفسك وأنا الرجل لا أستطيع حتى التفوه بها! كيف؟!

احمرَّ وجهُ جارث واحتقن بالدماء، مسح عرقه بمنديل وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- إلهي...

ثم بدأ سرد القصة قائلًا:

- يتحدثون عمَّن ابيضَّت وجوههم رعبًا، كناية عن الخوف الشديد. لكن في هذا المنزل بالتحديد، استحال وجه الأب هالوران للأبيض الخالص، أكثر بياضًا حتى من ياقة ردائه.

حكى جارث عن ما عاناه الأب هالوران من صعوبة في الحديث، وكيف ظلَّ يبتلع ريقه مرارًا بينما يرتجف صوته وكفاه. كيف زاغ نظره وراح يتنقل من النوافذ إلى

الحوائط إلى الأرض إلى أظفاره.. كيف تنقل نظره مِن وإلى كل شيء ولم يمر أبدًا بوجه جارث.

قال جارث:

- وحين أنهى المُتلعثم حديثَهُ معي، ظلَّ واقفًا مكانه لثوانٍ، ثم خرج من الحجرة بلا سلام أو مُصافحة أو وداع. بعد عدة أسابيع سمعنا أنه سيُنقل إلى ملجأ أيتام. قيل إنه كان يحلم بمساعدة أطفالٍ كهؤلاء. لكنني كنت أعرف الحقيقة، وأعرف أنه هو من طلب هذا النقل كونه فشلَ في مساعدتي. قال لي «لن أستطيع مساعدتها، فقط آمل أن رعاية الله ستنجيها». لكن الطريقة التي قال بها عبارته كانت تعني أن حتى رعاية الله لن تنجيها.

كان جريجوري واثقًا من كون الأب هالوران لم يقصد ذلك المعنى. سأل سوزان:

- أي مساعدة كنتِ تبغين يا عزيزتي؟

غامت عيناها الزرقاوان، وقالت بصوتٍ ناعم هادئ:

- كنت أريد النجاة من الجحيم، من اللعنة الأبدية في النار. قرأت في كتابٍ أن نار الجحيم سوداء، بلا ضوء. والأرواح الملعونة تُعذَّب فيها مُكومةً فوق بعضها البعض، لا تقدر على الحركة حتى ولو لإبعاد الديدان التي تأكل أعينهم.. لا شيء في الجحيم سوى الصراخ والألم والعفن والظلام الأبدي.

قال جريجوري:

- لا تقلقي بشأن الجحيم يا عزيزتي. من قال إنك ستعذبين فيها؟

- سأخلد فيها لأجل ما فعلت وأفعل..

قال جارث:

- أرأيت؟ أنا أخوض معها تلك المشكلة.

مشكلة سوزان مع الكنيسة هي أنها كانت فتاة تقية، لا تفوت أيَّ قداس. دائمًا ما تظهر بأفضل ملابسها مع أبيها في صباح أيام الآحاد كصورةٍ مُجسَّدة للنقاء. كانت ترتدي فستانًا قطنيا نظيفًا وتعقص شعرها على هيئة ذيل الحصان، وتسير مع أبيها من منزلها القريب إلى الكنيسة. في يوم أحد، كانت في طريقها مع أبيها لحضور القداس بشكل طبيعي، حتى رأت برج الكنيسة، فتوقفت عن السير واستدارت عائدةً إلى المنزل. لم يقدر جارث على معرفة ماذا دهاها في هذا اليوم، فهي لم تُجب على أي أسئلة. حتى إذا جاء يوم الأحد التالي، ووصلا إلى حيث ترى سوزان برج الكنيسة، توقفت الفتاة عن السير وعادت أدراجها. هنا سألها أبوها في غضب:

- لا تتلاعبي بي! سنذهب إلى الكنيسة.

أمسك بذراعها وسحبها خلفه، لكنها سحبت ذراعها. أمرها بالانصياع فبدأت في البكاء. لم يكترث جارث وسحبها رغمًا عنها نحو الكنيسة. صرخت فيه:

- لا تجبرني على الذهاب يا أبي، أرجوك! لا تجبرني على الذهاب إلى هذا المكان!

- هذا المكان مجرد كنيسة، وقد ارتدناها مئات المرات من قبل، ماذا دهاكِ؟!

تجمَّع أبناء الإبرشية وراحوا ينصتون إلى صوتيهما الذي مزق ستار السكينةِ والصمت. بلا وعيٍ أفلت جارث ذراع ابنته، فجرت إلى منزلها.

أكمل جارث حكايته التي يحكيها لجريجوري قائلًا:

- كانت تجري بسرعة حتى إنني كنت عاجزًا عن اللحاق بها.

قال لها جارث بعد أن لَحِق بها في المنزل:

- اسمعي، سأتصل بسيارة أجرة لتأخذنا إلى الكنيسة، وستذهبين معي حتى لو اضطررتُ لتقييدك.

- لن أذهب!

ضربها جارث، أو كما قال لجريجوري، مجرد صفعة. وضعت الفتاة كفها على خدها وحدَّقت في عيني أبيها، وقالت بصوتٍ حادٍّ لا يشبه صوتها في شيء، لكنه كذلك صوت هادئ مُتحكمٌ في نبراته:

- أتمنى لو تتعفن في الجحيم يا ابن الزانية!

* * *

قام جريجوري وأشعل سيجارة، بينما أردف جارث:

- عليك أن تفهم يا سيدي أن الفتاة لم تتحدث بتلك الكلمات القذرة مُطلقًا. ولا مرة سمعتها تتفوَّه بمثل تلك الكلمات. طيلة حياتها كانت فتاة مهذبة تقية محبوبة. لذا، عندما سمعتُ منها هذا الحديث ذُهِلت، لأنها لم تكن مجرد كلماتٍ في وقت غضب، بل كانت تعني كل كلمة منها.

قال جريجوري:

- كيف تأكدت من أنها تعني ما قالت؟

لكن الفتاة قاطعته هاتفة:

- لكنني عنيت كل كلمة بالفعل.. أعني، أنني عندما تفوهت بالكلمات كنتُ أعنيها.

سأل جريجوري:

- ولمَ؟ لأنه ضربك؟

- أعتقد ذلك.. لا أعرف.. شعرتُ وكأنما شخص آخر هو من قالها، شخصًا يعنيها.

أول ما طرأ ببال جريجوري كتفسيرٍ هو مرضُ الفُصام، وبدأ جريجوري في إلقاء الأسئلة التي تؤكد له تشخصيه لعدة دقائق، وفيلم (أوجه حواء الثلاث) ماثل أمام عينيه. تتابعت الأسئلة والإجابات سريعًا، وتعمَّد ألا يسأل الأسئلة التي تثير حفيظة

جارث. ورغم أن إجابات سوزان كانت تؤكد إصابتها بالفصام، إلا أن جريجوري لم يكن متأكدًا بعد، في الواقع كان أبعد ما يكون عن اليقين. سأل جريجوري:

- متى توفيت زوجتك يا سيد جارث؟

- منذ ستة أعوام. كانت سوزي في العاشرة وقتها.

قال جريجوري أخيرًا، محاولًا إنهاء اللقاء، فقد تأخَّر الوقت وهو محتاجٌ إلى الراحة:

- حسنًا...

لم يكن يتوق إلى اليوم التالي، فكانت مواعيده تتمحور حول العشاء مع آل بارلو، وتلقِّي زيارة عابرة من الأسقف كريمينجز أثناء مروره. لذا لم يعتبر جريجوري اليوم التالي يومًا مثاليًا، فالأسقف كان قويَّ العقيدة، وآراءه ثابتة كالصخر لا تتزحزح، وكان العجوز معتادًا على الحديث عن الأزمنة القديمة وهو يضحك ضحكته المكتومة المميزة، ويمطر المحيطين بشذرات من الحكمة المتعالية، ثم يدور ببطء حول موضوع يتجنب جريجوري الحديث عنه بشدة. كل هذا كان متوقعًا لذا فجريجوري كان مُحتاجًا للراحة كي يستطيع مجابهة كل هذا.

قال جريجوري بهدوء:

- يمكننا متابعة حديثنا في نهاية الأسبوع. أما الليلة فأريد منكِ يا سوزان أن تعديني بشيءٍ واحدٍ.

- ما هو؟

- أنك لن تحاولي أبدًا الهرب من البيت. أتعديني؟

- أعدك يا أبتاه.

قادهما جريجوري نحو الباب وهو يقول لجارث:

- سأتصل بك قبل نهاية الأسبوع لنحدِّد موعدًا للقاء. ما يحدث معكم مستمرٌّ منذ فترة، وتأجيل الحديث عنه يومين أو ثلاثة لن يضير. لكن، متى بدأ كل هذا، في يوم الأحد الذي لم ترغب فيه سوزان الذهاب من الكنيسة؟

- الأمر بدأ منذ شهر أو نحو ذلك قبل قرار الأب هالوران الرحيل. أتذكَّر جيدًا لأنني بعد ما قالته طلبت لقاء الأب طلبًا للنصيحة، وقال لي إنه سيتحدث مع سوزان، وقد جئنا إليه هنا في اليوم التالي.

قال جريجوري لسوزان:

- أنتِ لم تجدي صعوبة في دخول مسكنِ القساوسة هنا كما شعرت تجاه الكنيسة؟

- لم أشعر بشيءٍ فعلًا تجاه المكان هنا.

- حمدًا لله.. يمكننا إذًا أن نتحدث هنا على انفراد لاحقًا.

وضع جريجوري كفه على كتفها، فتملصت سريعًا من لمسته. هز جارث رأسه في أسى قائلًا:

- هذا هو ما قاله الأب هالوران حين صحبتها للقائه، كان يريد أن يتحدث معها على انفراد في مكتبه، لذا انتظرت هنا في الردهة، ولا أخفي عليك أنني كنتُ متوترًا للغاية. تصرفاتها كانت تحبطني، وكنت أظنني سأنتظر ثلث أو نصف ساعة، ربما أكثر. لكني سمعت فجأة صوت ضوضاء آتية من المكتب المغلق.

- ضوضاء؟

- أجل، صوتُ تهشُّم أو شيء من هذا القبيل، وكأن أحدَهم قد تعثَّر. ثم سمعت صوت.. لوهلة لم أميزه، لكنني عرفت أنه صوت الأب هالوران وبدا وكأنه يقول «كفى» أو «توقفي». ثم فزِعتُ حين صاح بصوت هادر:

- ماذا قال؟

- فقط «النجدة» أو.. قال «فليساعدني الله»!

أفلتت شهقة من حنجرة سوزان، والتفت جريجوري لها ليجدها تنفجر في البكاء. حين مدَّ ذراعه ليُمسِّد على كتفها، علا صوت بكائها وابتعد عن لمسته. التفت في قلة حيلة إلى جارث، ثم زال من عقله كل نية لإنهاء اللقاء، وتهاوى جالسًا على مقعد خشبي وقال:

- أكمِل حكايتك يا سيد جارث.

-3-
أكلَ أطفاله جميعًا عدا ثلاثة

- الأكاذيب.. أنصاف الحقائق.. الدعاية.. الرقابة.. حرق الكتب.. السيطرة على الفكر..

توقف جون تالبوت عن احتساء قهوته على خلفية من ضوضاء المطعم المألوفة، أصوات يوم السبت بلمسة أمسياته الحزينة المرهقة، بعدَ أيام عملٍ متواصل طيلة الأسبوع. لم تغادر عيني تالبوت وجه روبرت جارث خلال الخَمس دقائق الماضية.

سأل الأول:

- بمَ تذكِّرك هذه الكلمات؟

تردَّد جارث قبل أن يجيب:

- روسيا؟ الشيوعية؟

- صحيح.. وكذلك تُذكِّرَك بالكنيسة.

تغيَّر وجه جارث إلى غضب وهو يهتف:

- كفاك مبالغة يا تالبوت. أعني أنني لا أبتلع كل كلمة تقولها الكنيسة، فأنا أيضًا لدي عقل وأستطيع التمييز. لكن لا يمكنك تشبيه الكنيسة بالنظام الشيوعي، فكلاهما يكره الآخر من الأساس.

قال تالبوت في حماس:

- بالطبع يكره كلاهما الآخر، لأنهما وجهان لعملة واحدة.. بل وجهٍ واحدٍ لذات العملة فكلاهما شمولي. أتعرف معنى تلك الكلمة؟

لم يكن جارث واثقًا من معرفته الدقيقة بالمعنى، فقال تالبوت:

- تعني الكلمة كُلِّي السُّلطة. القدرة على التحكم في كل شيء، التحكم في العقل والجسد. الشيوعية تحدد لك الكتب التي تقرأها وَالكتب التي لا يصح قراءتها، وكذا تفعل الكنيسة. الشيوعيون يكتبون التاريخ لإرضاء أنفسهم، وكذا تفعل الكنيسة. الحق أنهما يُفضِّلان ألا تقرأ على الإطلاق. لماذا؟ ليس فقط لكون إنجيلهم مُحرَّف، بل هم يثبِّطون عزيمة الناس العاديين عن قراءته! مهمتهم فقط هي تفسيره من أجلك. أترى التشابه بين غُرف التعذيب التابعة للشرطة السرية السوفييتية ومحاكم التفتيش الكنسيَّة؟

قال جارث:

- أجل، لكن.. كل هذا كان في الماضي البعيد، لم يعد أحد يمارس تلك الأمور الآن.

رشف تالبوت قهوته وقال:

- بالطبع لا يمارسونها، فهُم الآن أكثر دقةً ومكرًا. لكن تحت ظاهرهم هذا لا زال باطنهم خبيثًا كما في الماضي. لذا لا أفهم أفعالك، ولا أفهم لم اصطحبت ابنتك إلى مكتب هالوران، ولا السبب وراء زيارتك لهاذا الرجل الجديد، سارجِنت.

- كما أخبرتك، فأنا أحتاج إلى مساعدة. أخاف أن أفقدُها، فإلى أين تتوقع أن أذهب بها؟ لا أعرف أيَّ شخصٍ يمكنه الحديث معها ويقنعها كلامه. اللعنة يا تالبوت، لم أكن أريد التورط مع الكهنة ، لكنني كاثوليكي ولا مفر من ذلك..

- لذا ذهبت إلى مصدر السُّلطة الذي تعرفه. لكن، تصرُّفك أحمق يا جارث وسيدمر ابنتك.

قضَّب جارث جبينه وتساءل:

- أنت تبالغ مجددًا يا تالبوت. منطِقُكَ جيدٌ ومتماسك، لكن لا أعرف ماذا تعني بأن تصرُّفي سيدمرها، وكيف سيفعل؟

- لا أعرف كيف، فلا أظنه سيعذبها على طريقة عقاب ساحرات العصور الوسطى. لكنه قد يحاصرها بالأسئلة ويخيفها ويهددها بالعذاب الأبدي، ويملأ نفسها حيرة وأفكارًا لا طائل منهم.

كان أداء تالبوت مبهرًا وهو يُخفضُ صوته بطريقةٍ درامية إلى حدِّ الهمس ويردف ببساطة:

- سيصيبها بالجنون.

- لكن لماذا قد يقود فتاة صغيرة إلى الجنون؟!

- أصغِ يا صديقي. ماذا أفادوا من حرق جان دي آرك؟ الكنيسة تُعادي كلَّ ما لا تفهمه، وسيخافون من ابنتك. لذا يطرقون عليها كالحديد كي يصوغوها كما يريدون. سيتلاعبون بها لأنه ببساطة يا جارث، هؤلاء الكهنة يضربون دومًا تحت الحزام.

قال جارث:

- سأرحل الآن.

- ابقَ قليلًا وسأخبرك بما يُثلج قلبك.

- أنا أريد بالفعل ما يُثلِج قلبي، أريد شرابًا.. هل تود استكمال حديثنا في الحانة القريبة؟

قال تالبوت بصوتٍ محايد:

- أنا لا أشرب. اسمع يا جارث، تعلَم أنني كنت أعمل في الفنادق كموظف استقبال، قبل أن أفتتح مطبعة خاصة بي. كنتُ أقابل الأخيار والأشرار.. أغلَبُ مَن قابلت كان من الفئة الأخيرة، وكنت أعرف كلَّ شيءٍ عنهم، وكل قذاراتهم. كنت أرى الكهول يأتون بصُحبَة المراهقات.. أتتخيَّل، مراهقات؟ في عُمرِ الثامنة عشر أو أقل. أرى

الغانيات واللصوص ورؤساء العصابات.. كذا كنتَ أقابِل الكهنة والقساوسة بأرديتهم السوداء وياقاتهم البيضاء والهالة حولهم التي يخدعون بها الجميع، لكنهم لم يفلحوا أبدًا في خداعي؛ لذا أقولها لك يا جارث، الكهنة يتلاعبون بالفتية والفتيات الصغار.

- عليَّ أن أرحل..

أصرَّ جارث على استكمال حديثه وهو ينظر نحو إحدى العاملات في المطعم وقال:

- لتسمع تلك الطُرفة أولًا. كان هناك شابةٌ، من عائلة طيبة، حملت سِفاحًا. صُدمَ أبواها ووقعا في حيرة عظمى، ماذا يفعلان؟ اتصلا بطبيب العائلة وراحا يُلمِّحان له، فقال: لو ظننتما أنني سأجري لها عملية إجهاض، فأنا لن أفعلها أبدًا. لكن يمكنني مساعدتكم. اذهبا بالفتاة إلى بيتي الريفي حتى موعدِ ولادتها، وسأولِّدها بنفسي. وبالقرب من بيتي هذا مصحة أجري فيها جراحات للفقراء والمشردين، وهناك أقابل عددًا كبيرًا من النسوة اللائي يحتجن إلى إجراء جراحات استئصال المرارة. سأختار إحداهن وأخبرها أنها كانت حاملًا وتم تشخيص ألم مرارتها بالخطأ، ثم سأجري لها جراحة الاستئصال على أنها ولادة قيصرية وأخبرها أنها قد أنجبَتْ طفلًا، والذي سيكون حفيدكما. تلك النسوة لا يعرفن الفرق بين جروح العمليات المختلفة.

كلُّ شيءٍ كما ترى كان مُخطَّطًا له بدقة، لكن بعد توليدهُ للشابة، لم يجد أي امرأة تحتاج إلى عمليات جراحية وقتها، لم يجد سوى قس فقط. هنا قرر الطبيب أن يلتزم بخطته، وبعد إجراء جراحة استئصال المرارة للقس أحضر له الطفل وقال: أيها الأب، لقد اختارك الله كي تكون معجزته، لقد ولدت طفلًا رائعًا! الغريب أن القس فَرِحَ للغاية على هذا الدليل على قدرة الله واعتبر ما حدثَ شرفًا له!

- تالبوت، عليَّ أن أرحل الآن.

- كما تشاء، سأختصر الطرفة. تربى الطفل على أنه معجزة الرب، وتنافس أهل الإبرشية على تربيته، وأرسلوه إلى أفضل مدارس.. إلخ. وفي سن الدراسة الجامعية، أرسلوا له بأن أباه، القس، يموت. هرع إلى جوار فراش أبيه وقال له: لطالما كنت كريمًا معي يا أبي، كيف أردُّ لك جميلك؟ قال القس: بأن تغفر لي خدعتي، كل تلك الأعوام كنت أخبرك أنني أبوك، لك تلك لم تكن الحقيقة.. أنا أمك!

ضحك تالبوت وأضاف:

- أفهمتها؟!

ابتسم جارث بلا حماس وقال:

- أجل.. طُرفة لطيفة.

- الطرفة أكثر من كونها لطيفة، الطرفة حقيقية وقاسية. أنت كنت تريد دليلًا أقوى على...

- أنا راحل..

- على راحتك، لكن خُذ تلك المجلة معك.

- لدي نسخة منها في المنزل على ما أظن.

- خُذ نسختي، فقد أشرت بالقلم إلى مقطع من الصفحة الثالثة والأربعين. مقال جنسي مثير مُفاجئ إن عرفت من هو كاتبه.

لف جارث المجلة السميكة حول نفسها ودسَّها تحت إبطه وقال:

- أراك لاحقًا يا تالبوت، هل ستكون هنا غدًا؟

- كلا، لدي عمل.

- ماذا عن يوم الأحد؟

- أي يومٍ إلا السبت.

- ولمَ السبت بالذات؟ لست يهوديًّا يا تالبوت، أليس كذلك؟

جعَّد تالبوت أنفه وقال:

- أنت تعرف أنني لست يهوديًا، لكنني أحب يوم السبت (ساتُرداي) لأنه مسمى على اسم ساتورن، الإله الروماني الذي أكل أولاده جميعًا -خشية نبوءة بأن أحدهم سيقتله- إلا ثلاثة. ما قولك فيه؟ في روما القديمة كانوا يقيمون الاحتفالات لتكريمه، وكانت عبارة عن حفلات جنس جماعي. يُطلَق على أتباعِه الساتورنيون، وهم السحرة والمشعوذون، أبناء ساتورن. المهم، لذا أحب العمل أيام الآحاد وأخذ إجازاتي أيام السبت.

- حسنًا، ربما أعود الليلة، أستكون هنا؟

- ربما.

- أحب حديثك.

- وأنا أحب الحديث إليك.

غادر جارث صالة الطعام، وقد تحوَّلت القهوة إلى حمضٍ في معدته، وثَقُلت روحه حتى غاصت في جسده خوفًا وشكًا. تالبوت كان مُتحدثًا ممتازًا، وبدا وكأن لديه إجابة لكل مُعضلةٍ. لم يقبل جارث أغلب ما قاله تالبوت، لكن لا دخان بلا نار.

ربما كانت فكرة إرسال سوزي لكهنة الكنيسة فكرةً غيرَ صائبةٍ، فالكنيسة ذاتُ تفكيرٍ عتيقٍ ومفاهيم عفا عليها الزمن. ربما كانت استشارة مختص نفسي هو الخيار الأكثر حداثة وعمليَّة.

لكن ما الفائدة التي ستعود على سوزي جراء إفراغ عقلها ومكنونات نفسها أمام شخصٍ غريبٍ؟ المختص النفسي سيُرغمها على تذكُّر الأحداث السيئة بدلًا عن نسياها. بمَ سيفيد إرغامها على الحديث عن أمورٍ قاسيةٍ كتلك؟

وعلى الرغم من ذلك، فلا ضمان ألا يُرغمها الأب سارجِنت على نفس الفعل، وهو ما يجب عليه منعها منه.

سوزان على الأرجح في البيت الآن، تذاكر دروسها أو تشاهد التلفاز أو تقرأ.. هي تحبُ القراءة للغاية مما أكسبها ذكاءً حادًا بالنسبة لفتاة في السادسة عشر.

الكهول الوُسماء مع فتياتهم المراهقات..

كوَّر جارث قبضتيه وقد طرأ ذلك الخاطر على عقله بغتةً فأزعجه للغاية.

تسارعت الصور في عقله: كهولٌ صلع الرؤوس فقدوا جذوة الشباب للأبد، يتُوقون لبشرة الفتيات النضرة، وعيونهم الواسعة، وأفواههن اليانعة الفاغرة، وأجسادهن الغضَّة. يسيل لعاب أولئك الرجال من بين شفاههم الشهوانية عند تخيُّل نهود المراهقات وأردافهم المشدودة المُستديرة.

صرَّ جارث على أسنانه..

كان قد وصل إلى منزله، وصعد الدرجات على خلفيةٍ من دقات قلبه المتزايدة من المجهود المبذول، فقد كان قلبه مُعتلًا منذ زمنٍ.

أخرج مفتاحه ودلف إلى الشقة.

قابله الصمت وركود الهواء وسط النوافذ المُغلقة. نادى بصوتٍ هادئ:

- سوزي؟؟

فتح جارث إحدى النوافذ وأطلق منها الهواء الحبيس المتعفن. نادى على ابنته مرة أخرى وهو يبحث عنها في الحُجُرات، لكنها لم تكن في أيٍّ منها.

اليوم هو السبت، لربما مرَّت صديقة عليها وخرجتا للتسوق. ربما شاب... لكن كلا، نادرًا ما تواعد سوزي الشباب، ويبدو أنها كانت تبتعد عنهم طواعيةً. بحث عن أي رسالة منها على طاولة المطبخ، لكنه لم يجد شيئًا.

أتكون قد ذهبت وحدها إلى الأب سارجِنت؟

وجاء الكهنة بصحبة فتياتهم الُمرتعبات...

ضغط جارث رقم مسكنُ القساوسة على أزرار الهاتف، لكنه لم يضغط الرقم الأخير ووضع السماعة مكانها.

صبَّ جارث نصفَ كأسٍ من زجاجة البوربون التي كان يحتفظ بها في خزانته، وأفرغ الكأس في حلقه. نزل السائل ناعمًا كالزيت عبر بلعومه، وسرعان ما انعقد في معدته ككتلة ثلج راحت تذوب تدريجيًّا وتتسرب إلى جسده. أفرغ ما تبقى من الزجاجة في كأسه وجرعها.

تالبوت مجرد رجل غريب الأطوار يُفضِّل العمل أيام الأحد، ويعشق أيام السبت بسبب ما فعله الإله ساتورن بأبنائه. تالبوت مليء بتُرهَّاتٍ كتلك.

شعر جارث بدفءٍ زائد عن الحد من تأثير الخمر، ففتح نافذة أخرى، لكنها لم تفلح في إخراج الهواء الراكد بداخله. سمع صوت احتكاك معدني في قفل الباب، ثم دخلت ابنته.

- أين كُنتِ يا سوزي؟

- مرحبًا يا أبي..

- أين كنتِ؟

- في السينما.

- بصحبة مَن؟

- كنتُ وحدي.

- وأي فيلم شاهدتِ؟

- الفيلم الذي يُعرَض في سينما وسط المدينة.. فيلم عن روما القديمة ومصارعيها وما إلى ذلك.

- ولمَ لم تتركي لي خطابًا أو ملحوظة تخبريني فيها عن مكانك؟

- آسفة يا أبي، نسيت.

- قلقت عليكِ.

- آسفة.. ها قد عدتُ.

وضع جارث زجاجة الخمر بعيدًا وهو يقول:

- روما القديمة.. أتعرفين أن السبت، قد سُمي على اسم أحد آلهة روما القديمة؟

- ساتورن.. أعرف.

فتحت سوزان البرَّاد وراحت تنتقي ما يصلح لصنع شطيرة من لحمٍ محفوظ، وجبن، وخس، ومايونيز، وزبد.

- بالطبع تعرفين، فلطالما كنتِ قارئة نَهِمة.

راح يراقبها وهي تنهي صنع الشطيرة، وتقضمها، ثم أضاف:

- ظننتك عُدتِ إلى الأب سارجِنت.

كان فمُها ممتلئًا بالطعام، فهزت رأسها نفيًا. أردف جارث:

- كنت أفكر في هذا الأمر..

رفعت الفتاة عينيها إليه انتباهًا، فأكمل:

- أفكر كثيرًا في الواقع، ولا أعرف إن كانت فكرة تَدخُّل كاهنٍ فكرة جيدة.

- لقد كان هذا اقتراحك يا أبي.

- أعرف، لكن.. نحن لا نعرف هذا الكاهن الجديد، ولا نعرف شيئًا عن ماضيه أو معتقداته..

- وهل يصنع هذا فارقًا؟

- لا أعرف.. حسنًا.. لكن كيف يمكنه مساعدتنا في الأساس؟

- ربما لا يمكنه ذلك، لكن دعنا نجرب.

نظر إليها جارث في فضولٍ وسألها:

- لقد كنتِ رافضة للفكرة كليًّا أمس، فماذا حدث كي تتحمسي لها بهذا القدر؟

- أنا لم أتحمس...

- بل متحمسة.. ما سر هوسك المفاجئ بالأب سارجِنت هذا؟

- أنا لم أقل إنه...

-أتذكرين رد فعلك عندما قابلتِ الأب هالوران؟

وضعت الفتاة شطيرتها على الطاولة وظلت تحدق فيها، بل تحدق خلالها وكأنها لا تراها وقالت:

- أذكر.

- من الخير أن تذكُري. هل تريدين أن يحدث ما حدث مرة أخرى؟ هل تريدين ذلك؟

صمتت هنيهة ثم قالت:

- كلا..

وأغمضت عينيها وأضافت:

- أمي..

- ماذا عنها؟

- لو أنها هنا..

- أعرف، لكنها متوفية منذ ستة أعوام، لذا فلا أحد هنا غيري.

- سعيدٌ أنت بغيابها، أليس كذلك؟

- ما هذا الهراء الذي تقولين؟

- سعيدٌ بموتها..

- سوزي، لا تبدئي في الحديث هكذا مجددًا..

- لم تُحبها قَط..

- أنتِ صغيرة على فهم تلك الأمور يا حبيبتي..

- أنت لم تحبها قَط لذا تركتها تموت..

- هذا ليس حقيقيًّا يا سوزي!

سألته بغتة:

- أكنت تحبها؟

- اسمعي يا حبيبتي، أنا أحبك، وهذا كل ما تحتاجين معرفته.

- لا تقل إنك تحبني، قولك هذا يُذكِّرُني بذلك اليوم.. ذلك اليوم..

- أي يوم؟

- اليوم الذي فقدتُ فيه الوعي، اليوم الذي لم أستطع تذكُّر تفاصيله مُطلقًا وكأنه مساحة من الخواء في عقلي. كل ما أذكره هو قولك أنك تحبني. إن لم تكن قد أحببتها فلا تحاول أن تحبني.

- لا يختار المرءُ من يحب يا حبيبتي.

قامت سوزان من مجلسها، فسألها:

- إلى أين؟

- إلى الأب سارجِنت.

- انتظري لحظة، علينا الحديث بهذا الشأن..

- كلا، أنا ذاهبة.

- لا يمكنك الذهاب وقتما تشائين، عليك انتظار موعدك أو حتى يتصل هو بنا.

سارت نحو الباب هي تقول:

- لو لم يشأ مقابلتي سأعود.

- اللعنة! أنا أبوكِ!

- أنت مجرد أب..

قالتها وغادرت. ظلَّ جارث واقفًا يحدق في الباب المغلق، ينصت إلى صوت قدميها إذ تهبط الدرجات بالخارج حتى خفتت الأصوات تدريجيًّا واختفت. لوهلة فكر في الذهاب خلفها، لكن كفَّه توقفت عند مقبض الباب، ثم قرر العودة إلى المطبخ بلا هدف، ووقعت عيناه على المجلة التي أعطاها له تالبوت.

ميَّز جارث كاتب المقال الجنسي إياه فورًا، فجلس وراح يطالع ما كتبه المؤلف عن عقار الإكستاسي.

-4-
دم المُتَبَتِّل

«في لحظة معينة، تكون النشوة الدينية والفنية والجنسية متشابهة بشكل مُدهش حتى يصعُب التمييز بينهم. في لحظة معينة، يُقتلَع المرء من جذوره ويُلقَى في النشوة الأبدية، ويتماثل الشعور لدى المتدين والفنان والحبيب، ثم تزول الذورة ويتفرق ثلاثتهم، وكأن لم يجمعهم شعورٌ واحدٌ قوي. لا يتلاقون ولا يتحدثون حتى تجمعهم النشوات مجددًا.»

أغلق الأسقف كونراد كريمينجز المجلة، ونظر مرة أخرى إلى الغلاف البرَّاق وقرأ عليه: نظرة الراهب إلى الإكستاسي، بقلم الأب جريجوري سارجنت. ثم أولَى نظرَه تجاه نافذة سيارة الأجرة التي يستقلها إلى مسكن الملاك ميخائيل للقساوسة.

جريجوري.. جريجوري.. قالها لنفسه وأردف: أنت رجل حَذِقٌ ماهر، وملاحظاتك عن النشوات في محلها حتى وإن كانت غير ملائمة لمنظور الدين، ومن الجميل مشاركة وجهة نظر جديدة كتلك مع القراء. لكن المجلات تنشر مقالات كتلك لأغراض دنيئة، ألا تعرف ذلك؟ ألا ترى لعاب المُحررين يسيل عند تنسيق عنوان الغلاف، وتعمد توضيح المفارقة بين كلمتي راهب وإكستاسي؟ هذه حيلة قديمة دائمة ناجحة، الجمع بين الدين والجنس. اجتماعها يولد تلك النكهة اللاذعة المُحبَّبة للجموع.

انفتحت المجلة مرة أخرى وقرأ الأسقف فيها:

«مِن المثير معرفة أن كلمة إكستاسي معناها في الأساس «حالة السِّنة» وهي مُحرَّفة من كلمة يونانية بمعنى الانعزال أو التنحية. وقد استخدم الروائيون والشعراء القدامى أمثال شيكسبير كلمة إكستاسي بمعنى الجنون.»

توقفت سيارة الأجرة أمام مَسكنِ القساوسة ونزل منها راكبها الضخم الأبيض، ثم رحلت. وقف الأسقف يرمق الكنيسة ومَسْكنَ القساوسة وتعجب كيف يبدوان في حالةٍ رثَّة على ضوء شمس ما بعد الظهيرة.

من الكنيسة تصاعدت أصوات الغناء والإنشاد، قُدَّاس الملاك ميخائيل، وهو مناسبة خاصة بتلك الإبرشية، وقد علم الأسقف بذلك الاحتفال الذي يُقام يوم التاسع والعشرين من سبتمبر. واليوم هو السبت، السابع والعشرين من سبتمبر. من الجيد أن ترتيبات الاحتفال قد تُبقي جريجوري مُنشغلًا وتُبعده عن إثارة المشاكل.

قضَّب الأسقف جبينه، ثم تنهد، وسار نحو باب المنزل.

ظهور الأساقفة لم يكن مألوفًا لدى مُديري المنازل والعاملين فيها، فلطالما أثار قدومهم التوترَ في النفس، وعَقد الألسنة تبجيلًا.

تركته مُدبرة المسكن وحيدًا لدقائق في الردهة حتى جاء جريجوري. ركع الأخير وقبَّل خاتم الأسقف وغمغم:

- مساء الخير يا سيدي، مجيئُكَ بَركةٌ عظيمة.

- شكرًا لك يا بني. كيف حالك؟

- أوه..يخير. ألن تجلس؟ جرِّب هذا المقعد..

- شكرًا يا جريجوري، مقعد مريح بالفعل.

- هل أقدِّم لك شيئًا تأكله؟

- كلا، فأنا لن أمكث طويلًا.

- أتريد كأسًا من البراندي إذًا؟

- لا تُثقل على نفسك. اجلس يا بني ودعني أنظر إليك. مر وقتٌ طويل منذ آخر لقاءٍ لنا، وكنت أود لو أخبرتك أنك تبدو بخير، لكن هذا بعيد عن الواقع. تبدو لي مُتعبًا.. أستطيع أن أرى ذلك.

- لم أنم جيدًا فقط.

- عليك أن تنتبه لنفسك ولصحتك.

- تبدو في خير صحةٍ، نيافتك، مرَّت أعوامٍ منذ التقينا ولا زلت تبدو كما أنت، فيما عدا...

ولم يجد جريجوري الكلمة المناسبة للتعبير عما يُفكِّر فيه. ضحكَ الأسقُف وقال:

- فيما عدا ازدياد وزني هه؟ أتعني أنني سمين؟

- إلهي، كلا...

ابتسم الأسقف وقال:

- أنا أفهم ما تعنيه، فقد هَرمِنا واستطالت أنوفُنا، وكبرت آذاننا وصارت الحياة أقصر. لاحظت هذا في زملائي، فالعمر هو أفضَلُ رسَّام كاريكاتوري يا جريجوري. الأعوامُ تُحيلنا صورًا هزلية مضحكة. ليس عليك أن تقلق من الآن، فلا زال العمر ممتدًا أمامك.. كم عمرك؟

- خمس وأربعون.

- فعلًا؟ الوقت يجري يا صغيري جريجوري سارجِنت. أنا أعرفك منذ مولدك.. منذ خمسٍ وأربعين عامًا! كنت وقتها تشبه أمك، لكنك الآن تشبه أباك أكثر. كانوا أشخاصًا طيبين. رحمهما الله. كنتُ أقول إن في تلك الأيام الخوالي لم يخطر لي أن تنضم للكنيسة، فأنت تفتقر إلى الانصياع الذي نراه في أغلب من يسلك هذا المجال. لطالما كان رأيك ينبع من عقلك، وكنت عنيدًا كذلك. أذكر أنك كنت في السابعة أو

الثامنة حين بدأت في كتابة تلك الجريدة ونسخها يدويًا على ورق بني. ماذا كان اسمها؟

- جريدة النهار اليومية. إلا أنها لم تكن يومية، فقد كانت تصدر كل أسبوعين أو ثلاثة.

ضيَّق الأسقف عينيه وهو يتذكر وقال:

- أذكر واحدة من الرسومات التي رسمتها للجريدة. كان رسمًا كرتونيًّا ليسوع الرب، يجلس متربعًا تحت لافتة مكتوب عليها» الرب يرى ويعرف كل شيء.» وكان على فخذيه كرة كريستالية من التي يستخدمها العرافون، إلا أنها لم تكن مجرد كرة، كانت الكرة الأرضية. بالطبع الرسم لم يكن متوافقًا أبدًا مع الفكر الديني الكلاسيكي، لكها كانت لوحة مُبدعة. والحق أنني أرى أنك لم تغيِّر رؤيتك تلك، مع تلك المقالات التي تكتبها. قرأت بعضَها.. مقالات مُبدعة لكن بعيدة عن الدين. أعترف أنني أحيانًا ما أعجز عن فهمها، لكنها ممتعة.

- ربما ممتعة أكثر من اللازم؟

- حسنًا.. أنت بارع في تحوير معاني الكلمات. الكلمات هي مصدَرُ تفاخرك يا جريجوري.

اقتبس جريجوري من الكتاب المقدس وقال:

- «الفخر يتبعه الدمار».

- و «في البدء كانت الكلمة».

وَرَدَت مكالمة من عائلة بارلو تُذكِّر جريجوري بموعد العشاء، فدفعت الأسقف لأن يقول:

- هل أعطِّلك عن شيء؟

أكد له جريجوري أن أمامهما متسعًا من الوقت، لذا طلب الأسقف أن يجرب كاسًا من البراندي، فأفعم جريجوري كأسين وقدَّم إحداهما له.

- ممتاز.. غير أني لست مُحبًا للشرب بشكل عام. أنت خبير في تلك المشروبات أليس كذلك؟

تصلب جسد جريجوري وهو يعيد الزجاجة إلى الخزانة وقال:

- ماذا تعني بخبير؟

- أنا فقط قصدتُ...

قال جريجوري في نفاد صبرٍ:

- لمَ تتظاهر أنك لم تقصد ما قلت يا سيدي؟ لمَ نجلس هنا نتبادل الأحاديث المُهذَّبة؟ أعرف لماذا انتُزِعت إبرشيتي القديمة مني...

- وَلدي.. هذه إبرشيتك.

ضحك جريجوري في مرارة وقال:

- هذه؟ لقد قال الأب هالوران نفسه إنها أقرب لبلدة صغيرة!

- نُقلتَ من إبرشية القديس فرانسيس بسبب...

- معذرة على مقاطعتك يا سيدي، لكنني أعرف السبب الحقيقي. لم يكن تعييني هنا بديلًا بسبب مغادرة الأب هالوران الطارئة. كلُّ هذا كذب!

- جريجوري..

- لم تعطوني فرصة للدفاع عن نفسي لأنه ببساطة لم يكن ثمة تهمة حقيقية موجهة إليَّ. أعرف أنه تم نبذي من إبرشيتي لأن أحدهم أبلغ أنني سكِّير وأنت صدَّقته.

ها قد أشيع السر وفُتحَ باب الحديث المباشر. قال الأسقف بهدوء ولطف:

- لم يُبلغني أحدٌ بكونك سِكَّيرًا، ولو فعلها أحدهم ما كنتُ لأصدقه. لكن أحدهم أخبرني أنك تشرب الخمر ولم أكن أحتاج لأحد كي يخبرني، فكنت أعرف منذ فترة.

أشار جريجوري إلى كأس الأسقف وقال:

- ما من رجل دين لا يشرب . أنت تشرب.

- أغلبنا يشرب.. من وقت لآخر.

- أنت تُلمِّح لكوني...

- أنا لا ألمح لكونك سِكِّيرًا، فربما تمر عليك أيام دون أن تمس قطرة من ال...

- هذا ما يحدث بالفعل.

- لكن أحيانًا أخرى تمس ما هو أكثر من قطرة. فمرات عديدة كنت تعجز عن تلاوة صلاةٍ على رأس رجل يُحتضر دون أن تتلعثم أو تفوح منك رائحة الخمر الخبيثة لتملأ الحجرة.

لم يُعلق جريجوري، فأردف الأسقف:

- أهذا كذب؟

غاص جيجوري في كرسيه، ووضع كأسه جواره وقال:

- حدثَ هذا مرة واحدة، ولم يحدث قبلها ولن يحدث بعدها. لكن من أجل زلَّة كهذه أخذتم مني إبرشيتي، تلك التي كدحتُ فيها طيلة عمري لأحيلها لكيانٍ مرموق، ونفيتموني إلى.. إلى هذا المستنقع.

- ولدي.. أنا أصدقك، وأصدِّق أن هذا لم يحدث من قبل، ولن يحدث مستقبلًا. وأريدك أن تُصدِّقني حين أقول أن زلتك كانت جزءًا صغيرًا من الأسباب التي أرسلتكَ إلى إبرشية الملاك ميخائيل. كنت أحتاج بديلًا للأب هالوران بسبب رحيله

المفاجئ، وقد خطرت على بالي لأنني رأيت أنها فرصة لك كي تبدأ بداية جديدة في إبرشية لا يعرفك فيها أحدٌ. فضلتُ هذا على عزلك أو المُضيُّ قُدُمًا في إجراءات ستحطم مستقبلك. على المرء أحيانًا أن ينصت لصوت عقله، وعقلي أخبرني أن تطبيق القوانين الكنسيَّة سيؤذيك، وقال لي إن المكان الشاغر في إبرشية الملاك ميخائيل هدية لك من السماء. ربما كنت مخطئًا، لكنني لم أُرِدْ أن أسلِّط كلَّ هذا الضوء على أمر السُّكر لأنه بالفعل أمرٌ تافه. كل ما أريد معرفته هو السبب الذي يدفعك للشرب من الأساس.

قال جريجوري:

- أنا نَفْسي لا أعرف سببًا.

- مُتأكدٌ أنت من كونك لا تعرف؟

قام جريجوري ودسَّ كفيه في جيبيه، سار نحو النافذة وهو يقول:

- عمومًا، لدي مشاكلٌ أكبر من ذلك كي أتعامل معها حاليًا.

- أتريد أن تشاركني تلك المشاكل؟

حرَّك جريجوري كتفيه لأعلى وأسفل وهو مولٍّ ظهره للأسقف وقال:

- لا أعرف، قصة طويلة هي.

- أحب القصص الطويلة، كل العجائز يحبونها كما تعرف.

التفت جريجوري وقال مترددًا:

- حسنًا...

- احكِ..

حكى جريجوري باختصار للأسقف قصةَ سوزان جارث، وعجزها عن دخول الكنيسة، والبذائة التي حدَّثت بها أباها، ومجيئها إليه طلبًا للمساعدة. سأل الأسقف:

- متى جاءت؟

- ليلة أمس، مع والدها. كانت قد تحدَّثَت قبلًا مع الأب هالوران. هذا هو الجزء الذي أجده مزعجًا في القصة.. سيدي...

- أجل؟

- لا أعرف كي أقول ما يدور بخلدي، لكن.. هل ورثت مشاكل معينة بتولِّي منصبي في هذه الإبرشية؟ هل ثمة سبب وراء رحيل الأب هالوران المفاجئ وعليَّ معرفته؟ هل... هل هو مَن طلب إبعاده عن الإبرشية؟

هز الأسقف رأسه وقال:

- طلب إبعاده؟ كلا بالطبع. الأب هالوران كما تعرف كان يتيمًا..

- أعرف هذا.

- .. وكانت تلك رغبته، أن يتولى إدارة ملجأ للأيتام. وكنت دائمًا ما أشجِّع فيه تلك الرغبة، وأعرف أنه سيتميز في أيِّ عملٍ يخص الأيتام، لكننا لم نفتح هذا الموضوع لأعوام، لذا ظلَّ في مكانه هنا حتى وفاة الأب برينير، فأصبح مكانه شاغرًا في ملجأ الملاك الحارس، وعلينا أن نملأ الفراغ الذي تركه في أسرع وقت. لمَ ظننت أن الأب هالوران طلب نقله؟

- كان لدى السيد جارث تصميمًا على أن الأب هالوران طلب نقله بسبب حالة سوزان ابنته.

- هذا ليس حقيقيًّا، ما الذي دفعه لهذا الظن؟

- بسبب ما حدثَ حين جاءت الفتاة لمقابلة الأب هالوران..

***

قال الأب هالوران:

- هلا انتظرت هنا في الردهة يا سيد جارث؟ تعالي يا سوزان معي إلى المكتب لنتحدث قليلًا.

- حسنًا أيها الأب.

بالنسبة لسوزان، فكان مكتب الأب مكانًا لطيفًا، بل هو واحد من أجمل الحجرات التي دخلتها في حياتها. بارد، هادئ، إضاءته ناعمة، رائحته عطرة كخليط من رائحة الجلد والتبغ. الحوائط كانت مُغطاة بالكتب، وسوزي تحب الكتب.

حين أغلق الأب الباب خلفهما، واختفى كلُّ صوتٍ من العالم الخارجي، وتمنت لو ظلت باقي عمرها في هذه الحجرة تنعم فيها بالسلام إلى الأبد.

تحدَّث الأب هالوران بهدوء وهو مبتسم. ما هي المشكلة؟ أكرِهَت القداس فجأة؟ هل ثمة ما يضايقها أو يخيفها هناك؟

- يمكنك أن تُخبريني يا عزيزتي، أيًّا كان السبب، يمكنك إخباري.

ترددت الفتاة واحتارت، وأخفضت عينيها قائلة:

- أنا.. لا أعرف حقًّا لمَ أفعل ذلك. شعور مُريع ينتابني، لكني بالفعل لا أعرف سببه.. شعور يشبه..

صمتت سوزان قليلًا مُحاولة أن تجد وصفًا مناسبًا، ثم قالت:

- حسنًا.. في مرة كنت مريضة، ولم أكن أقدر على الاحتفاظ بأي طعام في معدتي، ومجرد التفكير في الأكل كان يصيبني بشعورٍ مقيت.. أنت تعرف ما أتحدث عنه؟

أومأ الكاهن وقال:

- أصابتني إنفلونزا مرة أو اثنتين، وأعرف تمامًا ما تتحدثين عنه.

- وأنا مريضة، دخلت إلى المطبخ ووجدت قدرًا به يخنة خضروات ولحم، ومجرد مرآهم أشعرني بغثيانٍ شديدٍ ولم أقدر على السير نحو الطعام خطوة واحدة. كان عليَّ مغادرة المطبخ فورًا لأنني لو ظللتُ ثانية أخرى فلسوف..

أومأ الأب هالوران، أكملت سوزان:

- الذهاب إلى القُداس أشعرني بشعورٍ مماثل. لم يُخِفني الذهاب، لكن حين رأيت الكنيسة، ورأيت بُرجها والصليب علىً قمته، لم أستطع أن أكمل سيري، كان عليَّ أن أتوقف بل وأفرُّ منها إلى أبعد مكان. كنت أعرف أنني لن أطيق الاقتراب أكثر.

دمعت عيناها وسألته:

- أليس هذا شيئًا مُريعًا يا أبتاه؟

- لا تقلقي، كل شيءٍ سيكون على ما يرام. الآن، قولي لي...

رن جرس الهاتف، فقام الأب هالوران ليرد على المكالمة. وكانت من سيدة من أبناء الإبرشية، وراحت تسرد عليه مشكلة طويلة معقدة، وهو ينصت إليها في صبر، لكنه في النهاية أخبرها أنه سيتصل بها لاحقًا كونه مُنشغلًا في الوقت الحالي. وكانت عيناه مثبتتين على البساط طيلة وقت المكالمة.

فجأة، وجد في مجال بصره قدمين دقيقتين حافيتين، أظفارهما مطلية بلونٍ أحمر لامع. أنهى المكالمة بسرعة ووضع السماعة مكانها وهو ينظر ببطءٍ للأعلى، ووجد سوزان ماثلة آمامه عارية تمامًا، وكان لم يرَ امرأة عارية من قبل.

تحت إضاءة المكتب الخافتة، كان جسد سوزان يتألق، ويشع طلاء أظفار قدميها – سرَّها المخفي الصغير- وسط بياض جسدها وشحوب أظفار كفيها. انقبض قلب الأب هالوران، فقد كانت في حاجةٍ إلى مساعدةٍ عاجلة، أسرع مما كان يتصور. الفتاة مريضة للغاية.

بلا أي أثر للصدمة أو الغضب قال:

- ارتدي ملابسك يا سوزان.

نظر إلى وجهها، وكان قناعًا من خبث. قالت بصوت ليس كصوتها، وكأنَّ أحدهم يحرِّك شفتيها ويتحدث بدلًا عنها:

- لنتحدث.. لنتحدث يا أبتاه.

راحت تقترب منه مُردفة:

- لكن لن نتكلم عن الذهاب إلى الكنيسة، لنتكلم عن أشياء نوَدُّ حقًّا الحديث عنها، لتقل لي ما تشعر به، ولتخبرني كم أنا جميلة، وكم أنَّ جسدي فاتنًا. أخبرني بكل ما يدور بخلدك وأنك تراني هكذا. لن أغضب منك، فأنت رجل، وكل الرجال يفكرون في تلك الأمور.

مالت أمامًا وهمست في أذنه، شفتاها رطبتان، أنفاسها حارَّة، سكبت في مسامعه ما لم يسمعه أمثال الأب هالوران طيلة سنين عملهم في سماع الاعترافات. خفق قلبه عند سماع ما قالت، فأمسكت كفه ولعقتها ككلب.

سحب يده سريعًا وكأنما أصيب بصعقة كهربية، فأمسكت بيده الأخرى ووضعتها على ثديها.

تراجع خلفًا فأوقع مطفأة السجائر وهو يصيح:

- كلا يا سوزان..

لفَّت ذراعيها حوله وشعر بهما كقيودٍ حديدية، وغطَّت شفتيه بشفتيها، ودست لسانها بينهما. دفعها وهو يتراجع أكثر وهتف:

- كُفي!

- مُنافق!

قالتها بنعومة وأردفت:

- لن تخدعني، أنت تشتهيني تمامًا كما أشتهيك. لو أنك كنت واثقًا أنك لن تفر من العقاب لو استسلمت لي، لنلتني الآن.

دقَّت الأرض بقدميها وأردفت:

- لنلتي هنا، لدفعتني أرضًا وفعلت بي كل ما تشتهي نفسك، سينهمر عرقك عليَّ وأنت تضاجعني كالخنازير، وستُغرقني بلعابك ولهاثك..

علا صوتها وهي تهتف:

- منافق.. خنزير..

مع آخر كلماتها دفعت نفسها عليه، فصاح:

- إلهي! ساعدني!

وكان هذا آخر ما قاله قبل أن تغرس أصابعها حول حنجرته. حين جرَّ جارث جسدها العري من فوق هالوران، كانت أظفارها قد صُبغَت بالأحمر كأظفار قدميها، وغُطيت أصابعها بدماء المُتبتل.

-5-
صليبُ الآلام

تصلَّب الأسقف في ذهول لدى سماعه القصة، حتى سمع صوت دقاتٍ على باب المكتب.

فتح جريجوري الباب ليجد السيدة فارلي -مُدبرة المنزل- تدخل وتهمس بشيءٍ إليه، فاستأذن جريجوري من الأسقف وخرج معها إلى الردهة، ليجد سوزان جارث هناك، في انتظاره.

- أهلًا يا سوزان.

- مرحبًا يا أبتاه.

- أتريدين شيئًا؟

- فقط فكرتُ في... ظننت في مقدورك مساعدتي.. أو ربما استطعنا أن نتحدث، أو أيًّا ما كنت تراه مناسبًا..

- أيعرف والدك أنك هنا؟

- يعرف.

- جيد. لكن، توقيت مجيئك غير مناسب يا سوزان، لدي زائر. ربما يمكننا...

دخلت السيدة فارلي الردهة، ووضعت رسالة مطوية في كف جريجوري، وهمست:

- نيافته سمعني أخبرك أنها هنا.

كان الرسالة قصيرة: دعني أراها.

وضع جريجوي الرسالة في جيبه، وقال للفتاة:

- أعتقد أن الوقت ملائمٌ لزيارتك رغمَ كل شيء. أريدك أن تقابلي شخصًا يا سوزان. نيافة الأسقف كريمينجز. ألديكِ مانع؟

- كلا.. أعتقد لا مانع لدي.

- تعالي إذًا..

قادها إلى المكتب وفتحَ الباب. بدا المكتب لسوزان كما بدا لها أول مرة. ربما كانت الكتب في الأرفف مختلفة، وثمة آلة كتابة لم تكن هنا من قبل، وعلى الكرسي الجلدي الضخم -حيث جلس الأب هالوران قبلًا- رأت الأسقف ذا الشعر الأشيب والجسد الضخم. سأل جريجوري الأسقف:

- أتريدينني أن أبقى معكما؟

- كلا، يمكنك الذهاب.

قالت الفتاة مُترجية:

- أرجوك، ابقَ معنا أيها الأب سارجِنت، لا أريد أن أكون وحدي مع...

وأفضت ناظريها نحو كفيها القويتين. كرر الأسقف:

- يمكنك الذهاب.

غادر جريجوري المكتب وأغلق الباب. ساد الصمت الحجرة، لكن الصمت لم يبثّ السكينة في روح سوزان كما فعل سابقًا. كان الجو مشحونًا للغاية. قال الأسقف بصوتٍ حادٍّ:

- اقتربي يا آنسة.

سارت سوزان نحوه في طاعة.

- اجلسي.

جلست أمامه، في نفس المقعد الذي جلست عليه المرة السابقة فيما عدا أن الموجودات حولها لم تكن مريحة أو مُرحبة بسبب هذا الرجل العبوس، جامد الملامح.

- ما اسمك؟

- سوزان جارث.

- وأنا، بمشيئة الله وكرمه، أسقف كنيسة الأم المقدسة.

- سمعتُ عن نيافتك كثيرًا.

- قِيل لي أنك فتاة مشاكسة.

- أنا...

قاطعها الأسقف:

- صمتًا.. فتاة خبيثة أنتِ، بذيئة اللسان، فتاة شتمت أباها، فتاة ذات أفكارٍ قذرة. شخص خطر، عنيف هاجم مستشاره الروحاني وكاد يقتله. شخص محروم حتى من الاقتراب من الكنيسة، وكأنها الجحيم بالنسبة له. أهذه مزاعم حقيقية؟

أجابت الفتاة هامسة:

- أجل نيافتك.

- إذًا تلك الأفعال الشَّنِعة التي فعلتِها مع كاهن كنسي صحيحة؟ أنتِ وضعت يديكِ الشهوانيتين على جسده، واتهمتِه بنوايا فاجرة تجاهك؟

أومأت الفتاة برأسها.

- أصحيح أنك وجَّهتِ إليه شتائم بذيئة؟

أومأت مرة أخرى.

- كل هذه المزاعم الفظيعة حقيقية؟

تفادت النظر إلى عينيه وقالت:

- أجل.. كلهم...

صاح الأسقف:

- انظري لي وأنت تتكلمين!

بصعوبة، رفعت عينيها نحو وجهه الصخري وقالت:

- كلها صحيحة.

قام الأسقف من كرسيه واقترب منها عاقدًا يديه خلف ظهره، ودون أن ينظر إليها قال:

- المكان الذي نحن فيه، مسكنُ القساوسة، يُعتبَر في منزلة الكنيسة.. كنيسة الملاك ميخائيل.. كنيستك. وهي واحدة من كنائس متعددة أرأسها، أهذا واضح؟

- أجل نيافتك.

أردف الأسقف موليًا إياها ظهره:

- عليكِ أن تفهمي إذًا أنه حين أحدِّثك بشيء، فلن أكون كما يحدثك أبوك بنفس الشيء، أوحتى كاهنك، أو الراهبات في المدرسة. أنت في حضرة أسقُف.. مفهوم؟

أومأت برأسها، ولم يستطع بالطبع رؤية إيماءتها، فصاح بصوتٍ مُزلزل:

- مفهوم؟ أريد أن أسمع صوتك!

ارتعد صوتها وتدافعت الدموع إلى مقلتيها وهي تقول:

- كل شيء مفهوم، نيافتك.

التفت إليها وقال:

- ممتاز. اسمعيني، أريد أن تقفي.

وقفت الفتاة.

- أريدك أن تقتربي مني.

سارت نحوه، وكأن كل خطوة تقرِّبها إلى الموت. مدَّ كفَّه الضخمة وقال:

- أمسكي يدي..

تراجعت سوزان، فصاح:

- أمسكي يدي!

أمسكت يده وشفتاها ترتجفان. كانت يده في ضعف حجم يدها باردة، تحتوي كفها بداخلها وتطبق عليها. قال:

- الآن، أترين الباب؟ ليس الباب الذي دخلتِ منه، هذا الآخر. أتعرفين أنه يقود مباشرة إلى الكنيسة؟

شعُر بجسدها يتجمد، لكنه أردف:

- مباشرة إلى الكنيسة، بشموعها وصُلبانها ومذبحها.

لم تستطع أن تبعد عينيها عن الباب، أكمل الأسقف كلامه:

- أنا وأنتِ، سنسير يدًا بيد عبر هذا الباب وسندخل الكنيسة.

جذبت كفها وصاحت:

- لا!

- كأسقف كنسي، آمرك!

- كلا، لن أذهب، لا أستطيع!

بصعوبة بالغة، فرت من قبضته، وعدت نحو الباب الذي دخلت منه. أدارت المقبض لكنها وجدته مغلقًا بالرتاج. ظلت تطرق عليه بقبضتيها وراحت تبكي وترتجف حتى تهاوت على الأرض أخيرًا.

تنهد الأسقف، فأمر الباب المؤدي إلى الكنيسة كان مجرد ارتجالٍ منه، فقد مر زمن منذ آخر مرة خطاَ فيها إلى مسكن القساوسة هذا، لكنه يتذكر أن الباب الذي أشار إليه يقود إلى حجرة الطعام، فالمنزل لم يكن قَطّ متصلًا بالكنيسة. أغلب منازل القساوسة لا تتصل بشكل مباشر بكنائسها، وهو أمرٌ معروفٌ حتى إن ذعر الفتاة أنساها تلك الحقيقة.

سار نحوها، ورفعها عن الأرض، وأجلسها على كرسي وجلس أمامها قائلًا برفق:

- اجلسي يا ابنتي المسكينة. كل ما قلتِه كان حقيقيًّا، كل تلك البذاءات.. أعرف هذا، لكنك لست فتاة خبيثة. أليس كذلك؟

- بل أنا كذلك.

- كيف هذا وأنا أراكِ مُستاءة مما فعلتِ، وآسفةٌ عليه. الشرير لا يشعر بتأنيب الضمير.

لم تقل شيئًا، وتوقفت عن الارتعاد.

- عزيزتي، لمَ فعلت تلك الأمور؟

- لا أعرف.

- هل تستطيعين أن تصفي لي شعورك حين اقترفت تلك الآثام؟

حاولت سوزان قائلة:

- شعرت.. شعرت وكأنَّ مَن فعل ذلك ليس أنا، بل شخص آخر استولى على إرادتي.

تذكَّر الأسقُف حديث جريجوري من قبل عن المؤدي الذي يتحدث من بطنه ليجعل دميته تبدو وكأنها تتكلم. ربَّت على كفها، ثم استرخى في كرسيه.

فجأة قال في حماس:

- ما رأيك أن نلعب لعبة؟

- لعبة؟

- أتلعبين معي؟

- حسنًا..

- ممتاز..

أدخل كفِّه في جيبه وقال:

- سنحتاج إلى ربع دولار... ونصف دولار..

أخرج عملات انتقى منها ما أراد، وأعاد الباقي إلى جيبه ثم قال:

- أترين؟

أومأت برأسها. كانت عيناها حمراوين إثر بكائها. أردف الأسقف:

- والآن، أغمضي عينيكِ، وسأمَسُّ ذراعك بواحدة من العُملتين عدة مرات، وعليكِ في كل مرة أن تخبريني أي عملة مسستك بها. اتفقنا؟

أومأت مجددًا وظهرَ على ثغرِها شبح ابتسامة. أغلقت عينيها، ووضع الأسقف عملة الربع دولار على ذراعها. تفكَّرت حينًا ثم قالت:

- أعتقد أنه نصف دولار.

- لن أخبرك إن كانت إجابتك صحيحة حتى ننتهي. هذه هي قواعد اللعبة.

وضع النصف دولار على ذراعها هذه المرة فقالت:

- لا أعرف.. ربع دولار؟ لكن قد يكون النصف دولار مرة أخرى.

تجاهَل الأسقف وجود الربع دولار، وكرر وضع نفس العملة على ذراعها عدة مرات، وكانت إجاباتها:

- نصف دولار.. الربع؟ الربع مجددًا على ما أعتقد... النصف دولار؟

بينما انخرطت الفتاة في التخمين، كانت يد الأسقف الأخرى تبحث في جيبه عن شيءٍ آخر. ظلَّ يكرر وضع النصف الدولار على ذراعها وظلت في تخميناتها الخاطئة حتى جذبت هي كفها فجأة وصاحت:

- لقد أحرقتني!

فتحت عينيها وأردفت:

- ما الذي وضعته على ذراعي وأحرقني؟!

قبضت بكفها على مكان الحرق وهي تصرخ في ألم، لكن الأسقف أزاح يدها ونظر إلى الأثر في حزن وخوف، لكنه كان يتوقع ما سَيراه. فعلى ذراعها كان حرق وردي في نفس شكل وحجم الصليب المُتدلي من مسبحته.

-6-
زوجة الكاهن مكسورة الظهر

سقط كتاب الأدعية من يد جريجوري حين سمع صرخة الألم. اندفع من كرسيه إلى باب المكتب، وفتحه.

- ماذا حدث؟!

قال الأسقف بصوت أجش:

- حُرِقَت ذراع سوزان. هلا طلبت من الخادمة أن تضع مستحضرًا لعلاج الحروق على ذراعها؟

ظلت الفتاة تئن، ممسكة بذراعها. قال الأسقف:

- أعرف أن الحرق يؤلمك، لكنه ألمٌ سيزول. سامحيني يا ابنتي. اذهبي مع الأب جريجوري وستعتني بك الخادمة، ثم انتظرينا في الردهة. يمكنك مطالعة مجلة أو ما شابه.

رافق جريجوري الفتاة خارجًا، وظلَّ الأسقف وحده، مُطرقًا الرأس، عاقدًا كفيه حتى عاد جريجوري، فقال له:

- أغلق الباب.

- ماذا دهى ذراعها؟

- أرأيت أثر الحرق؟

- كلا.

- جريجوري.. أنا مُرتعب. كانت ثمة حالة مشابهة في بافاريا في عام ١٨٩٠. ولدٌ صغيرٌ. وقد تكرَّرت الحالة بعدها في أفريقيا، والصين خلال فترة العشرينيات. أحداث مماثلة ظهرت هنا كذلك، في ولاية آيوا وإلينوي. أنت تعرف أكثر مني عن هذه الأمور، فقل لي التفسير النفسي لما يُعجز فتاة تقية فجأة عن الاقتراب من الكنيسة؟

هز جريجوري كتفيه وقال:

- من الصعب تحديد سببٍ، لكن أعتقد أن الأمر له جذور مرتبطة بحدثٍ مؤلم خلال طفولتها مربوط في عقلها بالكنيسة. أو شيء فعلَتْه وأشعرها بأنها غير طاهرة...

- وسبُّ أبيها؟ كيف تفسر هذا؟

- الرجل أصرَّ على حضورها القداس رغمًا عنها، مما أثار غضبها.

- وما فعلته مع الأب هالوران؟

جال جريجوري في الحجرة وهو يحك رأسه ويقول:

- حسنًا، الرهبان – على الرغم من نذر العفة- فأحيانًا ما يكونوا ساحرين، مغريين كرموز للسُلطة والقوة. بالنسبة لعقلٍ مضطرب كعقل سوزان، فما شعرت به من رغبةٍ جنسية تجاة الأب هالوران مُبَررٌ وله دوافعه.أما بالنسبة لمحاولة خنقه، فالأمر بسيط.. الرجل رفضها فأثار حنقها وأهان كرامتها الأنثوية. ردُّ فعلٍ نسوي قديم.

-أجل.. كل هذا مثير للاهتمام يا جريجوري.. كل هذا مثير للإعجاب.

مسَّد على ذقنه وأضاف:

- والآن أخبرني عن تفسير هذا: لمَ، وبينما عيناها مغلقتان، صرخت في ألمٍ حين مسست ذراعها بصليب مسبحتي؟

جلس جريجوري وقال:

- أهذا سبب صراخها؟

- أجل.

- لا أرى في ذلك ما يثير الريبة. هي تتصرف بعنف تجاه كل ما يخص الكنيسة، فلم نستثني الصليب؟ وبالنسبة لفتاة في حالتها العقلية الهيستيرية، فقد يصور لها عقلها أن مس الصليب يؤلمها.

- ومتى علِمَت أن ما لمسها كان صليبًا؟ عيناها كانتا مغلقتين، أتذكَّر.

- متأكد؟

- متأكد.

- حتى وكونها لا ترى، فقد تستطيع التمييز بين عُملة وصليب عن طريق حاسة اللمس..

- العِلم سيدحض زعمك هذا. يمكنك التأكد من قريبك الطبيب النفسي هذا مما سأقول، فأطراف الأنامل تحوي نهايات عصبية حساسة للغاية تستطيع التمييز بدقة بين الأشكال والملامس المختلفة، على خلاف الذراع. يمكنك التجربة بنفسك.

حكَّ جريجوري جبهته وقال:

- أعترف أن منطقك أربكني فعلًا، لكنك أخبرتني كذلك أنها أصيبت بحرقٍ بالفعل. أكنت تُجاريها فقط، أم أنها حقًا أصيبت؟

- لا تهتم بذلك الآن..

شردَ الأسقف وكأنما يحادث نفسه قال:

- كنيسة الملاك ميخائيل.. ما يحدث هنا الآن، الاحتفالات بيوم القديس...

والتفت إلى جريجوري فجأة سائلًا:

- لنرَ كم تذكُر من دراستك اللاهوتية. مَن هو الملاك ميخائيل؟

- هو واحد من رؤساء الملائكة، وهو مَن حارب الشيطان وطارده هو فيلقه إلى الجحيم.

- ثمة صلاةٍ تُتلَى في نهاية القُداسات القصيرة، ونرددها يوميًّا تقريبًا. ما هي..؟

ردَّد جريجوري الصلاة المألوفة:

- أيها الملاك ميخائيل، دافع عنا في المعارك، وكُن عوننا ضد شر الشيطان ومكامنه، وليفرض الله عليه سلطانه، ونتضرع إليك بذلك. أنت يا قائد القوات السماوية ادفع إلى جهنم بقوة الله الشيطان وسائر الأرواح الشريرة التي تجوب العالم لإهلاك النفوس.

- أشكرك.. هلا أخبرتني مَن كَتَب تلك الصلاة؟ أتتذكَّر القصة وراءها؟

- أكان من كتبها هو بيوس العاشر؟ أو.. كلا..

- مَن كتبها هو قداسته، البابا ليو الثالث عشر. كما يُقال، فبعدَ يوم من القداس، كان في اجتماع مع الكاردينالات، وصُعق فجأة وهوى أرضًا. طلبوا لَه طبيبًا، فوجد أن لا نبض لديه، وقال إنه قد مات. ثم فجأة نهض، وحكى رؤية مفزعة؛ رأى العالم في المستقبل تحكمه فيالق الشياطين. وظهر في الرؤية الملاك ميخائيل وطاردهم كما فعل سابقًا إلى الهاوية. كانت هذه هي نهاية رؤيته، ورُدَّت الحياة إلى جسد البابا وأفاق. يومها كتب تلك الصلاة تكريمًا للملاك ميخائيل، وصارت تتلى في نهايات القداسات حول العالم.

قال جريجوري:

- أتذكَّر القصة الآن، نيافتك. لكن لمَ تقصُصها عليَّ الآن؟

- كي أُعِدَّك لما هو قادم. فما سأقوله سيعسُر عليك تصديقه.

انتظر جريجوري في نفاد صبرٍ أن يبين له الأسقف مقصده، وأخيرًا قال الأخير:

- استنتاجي هو، أن الفتاة – حرفيًّا- مُستحوذٌ عليها.

* * *

عبر حوائط المكتب التي تحجب الأصوات والموجودات خارجه، يتسلَّل من وقتٍ لآخر صوتُ طفلٍ يلعب، أو نفير سيارة عابرة. كلّ الأصوات بالخارج هي نسخ باهتة عن أصلها، يسود فوق صوتها دقات ساعة المكتب الرتيبة.

مُستحوذٌ عليها..

عبارة قصيرة مُوجزة، لكنها نثرت قطع الأحجية المُترابطة في عقله خلال ثوانٍ. مُستحوذٌ عليها من قِبَل الشيطان.

ولأول مرة في حياته، فكر جريجوري في عدوِّ الله، وركز عليه كل تفكيره وإيمانه. هو لم يشُك قَطّ في وجود الله، ولم يشك قَطّ في وجود الشيطان، لكنه ظلّ يسأل نفسه في ذعر، أحقًّا كان يؤمن بوجودهما؟ سرى البرد في جسده، فإنكار وجود الشيطان أمرٌ أخطر على إيمانه من السُّكْرِ. لو أن الله موجود، فوجود عدوٍ له أمر منطقي.

آمن جريجوري بالله، بعقله وروحه، بينما تقبّل وجود الشيطان بشكلٍ ضحلٍ عابر. لم يُختبر عمق هذا الإيمان من قبل، فالكُفر بالشيطان هو محض هرطقة.

كان يعرف أنه لم يكن أفضل كاهن. الكاهن يحتاج إلى رأس فوق كتفيه، وجريجوري في الواقع لديه رأس وعقل مميز. لكن الكاهن كذلك يحتاج إلى قلب، والقلب هو ما يحتقره جريجوري شأنه كشأن باردي العواطف.

دخل جريجوري سلك الكهنوت بأفكار كثيرة، إرادة قوية للخدمة العامة، وموهبة فطرية وكفاءة على التنظيم، ومحبة للكنيسة وتاريخها وفنها وآدابها، واهتمام بالغ باللاهوت، وعقل ذكي متألق. كان لديه كل شيء إلا الحِمية للدين. لكنه قال لنفسه أن لا وجود لكاهنٍ كاملٍ، فربما وُجدَ الكاهن الذي يملك الحمية ولا شيء سواها. قال لنفسه إنه سيكون خادمًا جيدًا للرب، فلماذا يتوقعون منه ما هو أكثر؟

لم يبدُ أبدًا أنه يفتقر إلى الإيمان، أو يتشكك في وجود الله، فالإيمان بالله لم يكن عسيرًا عليه قَطّ. الله هو الخير الذي يأمله بنو الإنسان. هو ينبوع الحياة، هو أبونا الذي في السماء. وجود الله فكرة عظيمة ولا شيء في نُبل تلك الفكرة وكرامتها وروعتها. لم يسخر أحدٌ قَطّ من الله، لكنٍ الجميع كان يسخر من الشيطان وينتقص من قدرِه عبر العصور. اعتبروه دُمية ظِلٍ، ألعوبة لطيفة في عروض السحرة على المسارح، وضعوا صورته على عُلب المليِّنات وعبوات الطلاء.

كلا، الإيمان بالله ليس صعبًا، لكن على الإنسان المعاصر أن يمحو آثارَ قرونٍ من السخرية من الشيطان حتى يستطيع تقبُّل وجوده، وأخذه على محمل الجد، وبذات الجدية التي يؤمن بها بوجود الله. الأمر صعب، والفشل فيه هرطقة.

هل أنا مُهرطق؟ الفكرة أثارت ذعر جريجوري. ألا زلت كاهنًا بعد كل هذا؟

إن كان مهرطقًا، وأخرجته هرطقته من زمرة الكهنة، فكَم من الوقت ظلَّ يخبِّئ تلك الحقيقة خلف الخمور؟

الهرطقة بالنسبة لكاهن، هي أحقر كلمة في قواميس اللغة، كلمة عسيرة الابتلاع.

انتبه لصوت ساعةُ المكتب، ولوجود الأسقف أمامه، وللمشكلة بين يديه، فكرَّر العبارة:

- مُستحوذٌ عليها؟!

- أجل يا جريجوري.

أومأ جريجوري ببطءٍ، وراح يقلب بشرود بعض الأوراق على المكتب وقال:

- أفهم..

ومن داخله كان يصرخ «لا أفهم.. لا أفهم شيئًا هنا وأنا في مكتبي، محاط بالكتب، في القرن العشرين.» قال الأسقف:

- الأمر عصي التصديق، أليس كذلك؟ لكن عندما كان المسيح حيًّا بيننا، أخرج الشيطان المتلبس بالأجساد عدة مرات، أتذكُر؟

أومأ جريجوري، فأردف الأسقف:

- «وكلَّم الشيطان يسوع في الصحراء، وقد رآه يسوع وحادثه».

- أجل. لكن كما قلت، فقد حدثَ هذا منذ زمن بعيد.

تساءل الأسقف في دهشة:

- وهل تغيَّرت الأمور إلى هذا الحد من وقتها؟

- الأمور تتغير بشكل عظيم خلال ألفي عام.

- صغائر الأمور تتغير، أوافقك. الطريقة التي يتحدث بها الناس تتغير، طُرق انتقالهم من مكانٍ لآخر، أشياء كهذه تتغير، لكن هل تتغير الأساسيات؟ أيتغير معيار الخير والشر؟ أيتغير وجود الله والشيطان؟

ثم أخذته خواطر عشوائية فأضاف الأسقف:

- أجل.. هل يتغير الرب؟ أريد منك إجابةً يا جريجوري بلا مواربة، إجابة بنعم أو لا. أتؤمن بوجود الله؟

تلعثم جريجوري للحظة، فسأل:

- لماذا...

- هل تؤمن بوجوده؟ أم لا تؤمن؟

استعاد جريجوري توازنه وأجاب:

- أجل، أؤمن بوجود الله.

- أتؤمن بوجوده ككيانٍ حقيقي؟

- أجل.

- أواثق أنت من إجابتك؟

- واثق.

جاء صوت جريجوري مُجيبًا أعلى مما أراده أن يكون. ظهر على وجه الأسقف الرضا، ثم سأله:

- وديابولوس؟

كان اسم الشيطان باللاتينية مألوفًا لجريجوري في السياق الكهنوتي، لكن وَقَع ذِكر ذلك الاسم في سياق حديث عادي كان ثقيلًا على عقله، الكلمة ذاتها كانت باردة مُقلقة.

- ماذا عن ديابولوس؟

- أسألك عن إيمانك به.

اجتاح عقل جريجوري فيضانٌ من إجابات. معلومات، نظريات، عقائد، أطياف من قراءات قديمة. لكنه في النهاية قال:

- ديابولوس، الشيطان، قوى الشر في العالم، كل ما هي سلبي وشرير وفاسد..

قاطعه الأسقف:

- أجل، أجل.. لكن هل تؤمن بوجوده؟

أجاب جريجوري بسرعة:

- بالطبع هو موجود، لكن...

- لكن؟!

جاء تعجُّب الأسقف كالسهم الماضي. أضاف:

- جريجوري، يبدو أن كلمة «لكن» هي المُفضلة لديك في كل الحوارات. ويالله العجب، فالكلمة تقفز إلى لسانك في كل مرة تتحدث عن أمور دينية لا نقاش فيها. لكم أخاف من تكرارك لتلك الكلمة.

قال جريجوري بهدوء:

- أنا نَفْسي أخافها، بالرغم من أنني كنت سأقول: ولكن هل الشيطان حقيقي كالرب؟

- أهذا فقط ما كنت ستقوله؟ هذا فقط؟ أتقصدُ – وبالطبع أنتَ لا تقصد- أن الشيطان كيانٌ رمزيٌّ؟

قال جريجوري ساخرًا:

- أنت تعرف أكثر مني، نيافتك. بالطبع لا أقصد هذا، فليس في الدين من رموزٍ كما يعرف الجميع. فخبز التناول والنبيذ في القداس هو في الحقيقة لحم ودم المسيح.. لحمه ودمه حرفيًّا. لذا لن أستطيع القول بأن الشيطان مجرد رمز على الأقل أمامك، وإلا اتهمتني بالهرطقة.

- أجل يا جريجوري، كنت لأتهمك بالهرطقة.

سأل جريجوري:

- أما أقولُ حقًّا هرطقة؟ أن أتشكك في وجود شرير درامي كأنما هو جزء من عرض مسرحي؟ أتريدني أن أؤمن بمخلوق أحمر اللون ذي قرنين وذيل ويحمل في

يده شوكة؟

أجاب الأسقف:

- أجل، إن كان هذا ما سيجعل ديابولوس حقيقيًّا بشكل كافٍ بالنسبة لك! حقيقيًّا كالأرضية تحتنا، حقيقيًّا كهذا الكرسي. إن كان هذا ما تحتاج كي تتوقف عن الحديث عن الرموز..

- أنت مَن بدأت الحديث عنها!

- تحدثت عنها فقط حين سمعتها غير منطوقة في عقلك. جريجوري، يمكن للرمز أن يتحول لضباب يحجب مرارة الحقائق. ربما يحتاج البعض لحجبٍ كهذا، لكني أنا وأنت... أنحن حمقى؟ أنحن أطفال؟ نحن رجال الرب!

هتف جريجوري:

- أريد حقًّا أن أؤمن، هل تظن أنه يروق لي السير على حافة الهرطقة بهذا الشكل؟ أريد أن أؤمن أكثر مما أريد أي شيء آخر في العالم. لكن تركيبة عقلي المنطقية...

اتسعت عينا الأسقف وصاح في غضبٍ:

- منطقية؟! أنت تقول إنك تؤمن بالله، تقول إنه موجود، وحقيقي، لكن ما تكفر به هو وجود عدوٍ لله. حسنًا، فعندما تختلف طريقة إيمانك بالله عن طريقة إيمانك بالشيطان، فأنت تحكم بمعيارين، ولن تستطيع أن ترى الصلة بين الإيمانين مهما بزغ أمامك، فبالله لا تحاول التظاهر بأنك تفكر بالمنطق.

كاد جريجوري أن يصرخ وهو يقول:

- حسنًا إذًا! سمِّها غريزة، أو حدس، أو إيمان.

- الآن تتحدث عن الإيمان، هه؟

هدَّأ جريجوري نفسه وقال بصوت خفيض:

- أجل، هو الإيمان. لديَّ أسباب منطقية عِدَّة، وسمعت نقاشات عقلانية كثيرة تدفعني للإيمان بالله، لكنني لا أؤمن بالله بسبب المنطق والعقل، أنا أؤمن بالله لأنني أعرف بوجوده، أشعر به في أعصابي، أحِسُّ بوجوده. لكن إيماني بوجود الشيطان.. ضعيفٌ. أنا موقن بوجود الله كما أنا موقن بوقوفي أمامك هنا، واقف على الأرض، قابض على الكرسي. أنا واثق!

قال الأسقف فيما يقارب الهمس:

- جيد.. أصدقك. أخبرني عن سبب يقينك.

قال جريجوري في يأس:

- لا أعرف، لا يوجد سببٌ واضحٌ.

اقترح عليه الأسقف إجابات:

- أيمكن أن نقول إنك تؤمن بوجود الله لأنه -ربما- يريدك أن تؤمن بذلك؟

- أعتقد أنه...

- نعم أم لا؟

بعد هنيهة أجاب جريجوري:

- نعم.

حاصره الأسقف هاتفًا:

- إذًا، فربما يكون كُفرك بديابولوس، لأنه يريدك ألا تؤمن بوجوده! هذا منطقي!

ابتسم جريجوري في وهن وقال:

- اعتقدتُ أننا تركنا الحديث عن المنطق.

ابتسم الأسقف هو الآخر وقال:

- أنت مَن تركته، لا أنا.

صمتا قليلًا، وتركا النقاش يُرسي أثره في نفسيهما، بينما راح الأسقف يتفحص الكتب على الأرفف شاردًا. كانت مكتبة جريجوري تتألَّف من كتب كاثوليكية وكتبٍ عامة بقلم أبرز الكُتَّاب الذين تأثَّر بفكرهم؛ أعمال كلوديل ومورياك وبرناسوس بلغتها الفرنسية الأصلية. كتاب «الإنجليز» بقلم تشيسترتون.. وَو وجرين، أوجستين و كيمبس بالطبع. كتاب الكاردينال نيومان: داميان مجذوم فارو. بالإضافة إلى سيرة جيرالد الذاتية عن الشياطين المُتلبسين بالكهنة، جنبًا إلى جنب مع كتب حياة القديسين والموسوعة الكاثوليكية الكاملة.

قال الأسقف:

- كل تلك العقول الكاثوليكية على رف مكتبتك..

ثم جال ينظره على الأسماء الأخرى مثل كافكا وبودلير وأردف:

- وبعض العقول غير الكاثوليكية كذلك.

سأل جريجوري مازحًا:

- أتظن أنهم أفسدوا عقلي؟

- نحن من نُفسد أنفسنا. لو أن بعض الكتب قد تفسد إنسانًا، فلا مجال للإصلاح إذًا. أتكره من يسألونك إن كنت قد قرأت تلك الكتب كلها؟

أجاب جريجوري:

- لدي إجابة نموذجية: أجل، وقرأت بعضها مرتين.

- أتقرأ لكافكا كثيرًا؟

- كثيرًا.

لمس الأسقف كتابًا وهو يقول:

- أرى أن لديك أشعار بودلير.. أتتذكَّر القصيدة التي يقول فيها: «أعظم خدع الشيطان هو إقناعنا أنه غير موجود.»

- لا أتذكرها تحديدًا، وإن تذكرتها فهو على أي حال كاتب هرطيق فاحذر من الاقتباس عنه في نقاشاتنا أو الاستعانة بفِكرِه لإقناعي.

ضحك الأسقف قائلًا:

- حسنًا، أنا لا أعاني أي مشاكلٍ في العقيدة!

ثم عاد إلى المكتب وأشار إلى كتابٍ آخَر وقال:

- ها هو كافكا.. لا أزعم أنني قرأت له الكثير، لكنني أتذكر عبارة كتبها في كتابٍ ما. قال فيها: «واحدة من أحذق حيل الشيطان أنه يغرينا لخوض معارك مع أنفسنا. الأمر أشبه بشجار مع امرأة ينتهي بمضاجعتها.»

التفت الأسقف إلى جريجوري وأضاف:

- لا أحمل أي ضغينة تجاه ميولك لعلم النفس يا جريجوري. ربما تظنني عجوزًا عاجزًا عن مواكبة المُستجدات، لكن في الواقع أنا مُتابع جيد لأعمال الأب ديفلين، المُحلل النفسي، وإنجازاته في شيكاجو. كل هذا ممتاز، لكنني أتساءل إن كنت تركت نفسك لإغواءات التحليلات الحديثة للاستحواذ الشيطاني وطرد الأرواح الشريرة؟ أعرف -على سبيل المثال- أن المختصين النفسيين يفسرون الاستحواذ الشيطاني بالمرض النفسي. أعرف أن قضية المرأة المُستحوذ عليها لمدة ثمانية عشر عامًا يعتبرونها شللاً هيستيريًّا، وأن إيمان البعض بأن يسوع قد شفاهم يعتبرونه ذُهانًا. صراع الرب والشيطان حول الروح البشرية لا يمكنهم رؤيتها إلا تحت مظلة التفسيرات الفرويدية؛ صراع الأنا العليا والهي على الوعي. كل هذا كلامٌ مُغرٍ، حاذق. لكن الأذكياء يستطيعون تفسير كل شيء حسب أهوائهم كما تعلم. أنا أيضًا أستطيع تفسير نظريات علم النفس بطريقتي الخاصة.

- أتستطيع فعلًا؟

- بالتأكيد. لو أنهم يزعمون أن طقس طرد الشياطين هو محاولة بدائية للعلاج النفسي، أو هكذا يفترضون، فلمَ لا نفترض العكس؟

- كيف هذا؟

- لمَ لا نفترض أن المختصين النفسيين اليوم، وبينما يؤمنون أنهم يشفون مرضاهم، فإنهم يمارسون بلا وعي نوعًا من طرد الشياطين الحديث، وأنهم بممارساتهم يُخرجون الشياطين فعليًا من أجساد مرضاهم؟ هم فقط يطلقون اسمًا مختلفًا على طُرق علاجهم، ويستخدمون طقوسًا مختلفة، وتعبيرات حداثية. هم ينكرون

ديابولوس رغم مشاهدتهم لأثره. ربما يُعيدنا هذا إلى بودلير. الشيطان يريدنا أن ننكر وجوده. هذه هي خدعته العُظمى.

أكمل الأسقف حديثه قائلًا:

- السير توماس مور، الشهيد الكاثوليكي، والبروتستانتي مارتِن لوثر، والذي أتحفظ على فلسفته كما أفعل مع بودلير وكافكا. كلاهما يظنون أن الشيطان لا يتحمل سخريتنا منه. لكنني أختلف معهما وأقول إن الشيطان يريدنا أن نسخر منه، وأن نقلل من مكانته وقدراته، أن ندمر أسطورته. يريدنا أن نؤمن بأن ميت. لقد نفذنا كل مُخططه وصار الشيطان وهمًا بينما هو حقيقة راسخة.. هو حي وموجود داخل تلك الفتاة. استحوذ على جسدها وعقلها، وعليك أنت منعه من الاستحواذ على روحها.

- أنا؟!

- بأن تؤدي طقس طرد الأرواح. متى آخر مرة باركتك فيها يا جريجوري؟ منذ عشرين عامًا؟

- أعتقد هذا.

- أتذكُر طقس البَركة؟

- حسنًا، ليس بالكامل..

- أنا أتذكر، أتذكر كلَّ الصلوات الكُبرى والصُغرى.. صلوات هذا الطقس كثيرة وغالبًا أنت نسيتها، لكن واحدة من الصلوات الصغرى هي إعطاؤك التصريح لإقامة طقس طرد الشياطين. عندما أعطيك الإذن فأنا أقول..

وصار صوت الأسقف أقوى وأكثر رخامة وهو يهتف:

- .. «أمنحك القدرة على وضع يدِك على جسد المُستحوَذ عليه، ومن خلالها ستسري بَركة الروح القدس. وبكلمات طرد الشياطين، ستُمنح القدرة على إخراج الأرواح الشريرة من أجساد المُستحوَذ عليهم.» أتذكُر تلك العبارات؟

قال جريجوري:

- أجل..

- أنت حصلت على الإذن الآن، وعليك الإيمان بقدرتك على مساعدة الفتاة يا جريجوري. أنت فقط من يملك القدرة على ذلك، فلا الأطباء ولا علماء النفس يقدرون على شيء.

كاد جريجوري أن يضحك وهو يسأل:

- كيف أساعدها؟ بطرد الشيطان منها؟!

أوما الأسقف قائلًا:

- أنا أغامر يا جريجوري، فمَن يقدر على تلاوة طقس طرد الشياطين كاهن مؤمن إيمانًا لا يتزعزع، خادمٌ للرب لا يُشك في ولائه، كاهن قوي. لو كان لي أن أطلب رأي الكاردينال، كان ليقول: «اخترت الأب سارجِنت؟ أفقدت عقلك يا كونراد؟!». لكنني لن أطلب رأيه، وسأتحمل مسؤولية اختياري لك كاملة. المهمة محفوفة بالمخاطر حتى لو أوكلت بها إلى كاهنٍ مثاليٍّ. لو أن شيئًا فظيعًا حدثَ، لو فشلنا، فستكون العواقب وخيمة. سنُعاقَب بشدة حتى إن روحي ستُكسر دون أي فرصة للإصلاح، فروح المُسن هشَّة مثل عظامه. لكنني بعد سأخاطر، فهل ستخاطر معي؟

عقد جريجوري حاجبيه وهز رأسه قائلًا:

- لا، لا.. على الصعيد العملي فطَردُ الأرواح مهمَّةٌ تتطلب التفرغ التام، فالأمر ربما يتطلب أيامًا، أو أسابيع.. من سيتلو القداس بدلًا عني؟

- هذا عُذر وليس سببًا. لا تقلق بهذا الشأن. سأرسل لك الأب ستيفانسكي من الأبرشية المجاورة ليساعدك. يمكنه التفرغ لعدة أيام.

ظلَّ جريجوري يهز رأسه ويقول:

- أنا نسيت كل شيء تعلمته عن طقس طرد الشياطين والأرواح الشريرة..

- سأعلِّمك كل شيء.

- أنا لم أؤدِّه قط من قبل.

- أن تمارسه طيلة الوقت في كل مرة تبارك فيها شخص، أو ترشه بالماء المقدس لكن بمقياسٍ مُصغَّر، أنت تستخدم قوة البركة يوميًّا، والآن عليك استخدامها بشكل أكبر.

- لا أقدر.

- عليك أن تقدر.

- أقدر على طرد شيطان من العصور الوسطى لا أؤمن بوجوده حتى؟

- لهذا السبب تحديدًا عليك طرده. هذا هو الفعل الوحيد الذي سيزيل عنك شكك، الفعل الوحيد الذي سينقذك.

- ممَّ سينقذني؟

لم يعرف الأسقف تحديدًا ممَّ سينقذه طرد الشيطان، فربما كان حديثه مجرد ارتجال، أو لمحة من المستقبل تسللت لكلماته كما ينجذب الحديث للمغناطيس. والآن يسأل جريجوري: « ممَ سينقذني؟»، ويكاد الأسقف أن يجيبه: «ينقذك من زجاجة البراندي ربما.» لكنه لم يقل ذلك. كانت العبارات تتصارع في عقله، كان يريد التعليق عن كيفية سير الأمور على هذا النحو المتماسك؛ اسم الإبرشية ذاته يوحي بشيء أكبر، الاحتفال بيوم الملاك ميخائيل، تنحي الأب هالوران عن منصبه في هذا الوقت تحديدًا، كل هذا ربما يحمل معنى ما. كل شيء مُرتَّب لتلك اللحظة منذ

الأزل. لمَ وُلد الأب هالوران يتيمًا، لمَ أقيم ملجأ وصار به مكان شاغر في هذا الوقت تحديدًا. ولماذا اُختيرَ جريجوري ليحل محل الأب هالوران؟

كل هذا يشير لخطة كُبرى، حتى إن الأسقف لا يستطيع سوى أن يرى ركنًا ضئيلًا منها لا أكثر. ربما أُزيح الأب هالوران عن منصبه لأنه مؤمنٌ إيمانًا عفويًا، لا يحتاج لاختبار. بينما جريجوري...

لم يقدر الأسقف على التفوه بأيٍّ من تلك الخواطر، فقد قاطعها صوت صراخة مُخيفة، وصوت صدام آتٍ من الردهة.

وجد الأسقف وجريجوري نفسيهما في الردهة دون أن يدروا كيف وصلا إليها، وكانت سوزان واقفة في منتصف الحجرة، تضحك. توقفت عن الضحك وصرخت كحيوان يخترق رمحٌ جسدَه ثم ضحكت مرة أخرى.

كانت لوحة السيدة العذراء مُدلاة على الحائط، مُتفسخة الإطار، مكسورة الزجاج، والشيء الذي دمرها كان ساقطًا على الأرض على مسافة منها، مسافة تشي بقوة التصادم العاتية، وقوة قاذفه. كان كتابًا أسودَ ثقيلًا، كتاب صلوات جريجوري. ورأيا غلاف الكتاب مُمزقًا وقد انثنى كعبه.

أشياء غريبة تدور في ذهن المرء في أوقات عصيبة كتلك. نظر جريجوري إلى كتابه الممزق، وتذكّر الدعابة الشهيرة عن كون كتاب الصلوات هو زوجة الكاهن.

صرخت سوزان بكلمات بذيئة متتالية في وجهه، واحتاج الأمر إلى قوة الرجلين مُتحدين كي يجُرَّا الفتاة إلى حجرة النوم العلوية ويحبساها فيها.

-7-
العهد

«في الجحيم، يصرخ الشياطين في بعضهم البعض مطالبين بالجرح والذبح دون شفقة أو رحمة. يلقون هذا المُذنب في مراجل تغلي، أو يدفعون ذاك إلى جمرٍ ملتهب. أما النسوة الفاسقات، فبَيْنَ أذرعهن تتلوى شياطين على هيئة تنانين، يوثِّقونَ أيديهم وأرجلهم بذيولهم الأفعوانية. تضع الشياطين أفواهها المُلتهبة على أفواه النسوة، وتنفث فيها لهيبَ النار والكبريت والسُّم. تتلوى بطونهن بالألم.. يصرخ الملعونين والشياطين في آنٍ: ها قد أتت الزانية، ها قد أتت الفاحشة، انظروا لها أيها الشياطين، فلينصَبَّ عليها غضب الجحيم! اقذفوا بالعاهرة إلى السعير وألحِقوا بها من العذاب ما تستطيعون».

بدا غريبًا بالنسبة لجريجوري أن تكون سوزان على معرفة بعمل عتيق من القرن السابع عشر مثل: «عجائب العالم الآخر»، والذي كتبه رئيس الدير المزعوم فرانسوا آرنو. وكان اختيارها للمقاطع التي تصف النسوة الفاسقات بالذات، اختيارًا مثيرًا.

عذاب الملعونين يتمثل حسب الكتاب في أرجحة المذنبين عراة، وتقليبهم فوق النيران، وحشرهم في شقوق الصخر، وثقب أجسادهم فوق عجلات مُسنَّنة.

عشرات من الصور المريعة للعذاب تومض في عقل جريجوري. تلك المشاهد الدموية المزدحمة، التي كانت موضوعًا مُفضلًا لدى رسامي العصور الوسطى.

قال جريجوري لفسه: تلك التخيلات هي ما يطالبونني بالإيمان به. شياطين على هيئات جرجولاتٍ وتنانين.

كان الحرق على ساعد سوزان حقيقيًّا، وقد رآه بنفسه حين ساعد في جرِّ الفتاة وحبسها في الحجرة. بدا الحرق كالدمغِ على جلد المواشي في المزارع.

اقترح الأسقف أن يتصل جريجوري بوالد الفتاة، ويطلب منه السماح لها أن تقيم في مسكن القساوسة لفترة. لذا، أغلق جريجوري مكتبَه على نفسه، ورفع سماعة الهاتف.

لكن مكالمته الأولى لم تكن لجارث.

* * *

قالت فيرجينيا شانون لزوجها وهو يجول في المطبخ بحثًا عن ثقاب:

- أذناك حمراوان.

قال بينما يسحب الدخان من غليونه:

- كنت أتحدث في الهاتف لقرابة نصف ساعة.

أخيرًا أمسكت نيران الثقاب في التبغ، وتصاعَدَ الدخان العطري. أطفأ شانون عود الثقاب وأضاف:

- كنت أحادث أخاكِ.

- برايان؟

- بل جريج. ماذا تطبخين؟ رائحته زكية.

- كعكة كرز لسهرة الليلة.

- كنت أظن أننا سنتناول العشاء بالخارج الليلة.

- سنفعل، لكنك دومًا ما تبحث عن طعام تتسلى به قبل النوم، لذا صنعت تلك الكعكة. يمكن لجليسة الأطفال أن تتناول بعضها.

- أتمنى لو تترك لنا شيئًا منها.

- ماذا كان يريد جريج؟

- مجرد دردشة، يراجعُ معي بعض النقاط العلمية لمقالٍ يكتبه.

جلس شانون على مقعد جوار منضدة المطبخ، وارتكن بكوعه عليها. سألته زوجته:

- ماذا عن مقالك أنت؟ ذاك الذي ستنشره في مجلة عِلم النفس رُبع السنوية؟ هل انتهيت منه؟

- سأنتهي منه، يتبقَّى لي بعض المراجعات، ثم سأرسله للمجلة بالبريد.

- أذَكَر جريج شيئًا بخصوص إبرشيته الجديدة؟

- ليس الكثير. قال إنها تروق له.. لا تتخلصي من القهوة!

ارتعدت من صيحته المفاجئة وقالت:

- القهوة صارت قديمة وطعمها كالسُّم!

- كلام فارغٌ.. سنشربها!

عبست فيرجينيا وقالت:

- أنا سعيدة من أجله، لكنني كذلك مندهشة كونه أحَبَّ الإبرشية الجديدة. فكما سمعت، فهي تقع في بلدة صغيرة ريفية.

- أنا لم أقل إنها أعجبته، قلت إنه يقول أنها أعجبته. يبدو أنها تُبقيه منشغلًا. يبدو أنه كذلك قد تعثَّر في حالة هيسترية يسيطر فيها عقل المريض على جسده بالكامل، حتى ليترك آثارًا مادية عليه بلا مُسبب خارجي. كان يريد أن يعرف المزيد عن حالاتٍ كتلك. بالطبع لم أستطع أن أوافيه بمعلومات دون أن أراجع بعض الكتب لدي. قلت له أن ثمة حالات لعمىً هيستيري، أو شلل هيستيري، أو حتى حَمْل

هيستيري تنتفخ فيه بطن المريضة لتسعة أشهر دون جنين بداخلها. سألني عن الجروح الهيستيرية، وأنا لم أرَ أحدها بعيني من قبل، لكنني سمعت عن امرأة أظهرت آثار جَلدٍ على ظهرها رغم أن أحدًا لم يمسها. ثم هناك حالة تيريسا نيومان..

- المرأة البافاريَّة التي ماتت مؤخرًا؟

- أجل.

- كفاها وقدماها كانوا ينزفون من جروح بدت كآثار أوتادٍ.

- في كل يوم جمعة – اليوم الذي صُلِب فيه المسيح- تظهر تلك الجروح. بعض الأطباء شخَّصوا حالتها بالهيسترية. ثم عرفت شيئًا مثيرًا من جريج، عرفت أن الكنيسة أعلنَتْ أن آثار جروح المرأة ذات طبيعة إعجازية. لم أكن أعرف هذه المعلومة، بعدها أخبرني بحالة أخرى سمع عنها: فتاة لا تحتمل الاقتراب من الكنيسة، ظهر على ذراعها علامة صليب بالحرق عندما مسَّها صليبُ مِسبحة. تبدو لي مثل الأخريات، حمل كاذب، آثارُ جَلدٍ كاذبة.. إلخ. لكنه قال... أعتقد أنني أحتاج المزيد من السُّكَّر..

مررت له فيرجينيا إناء السُّكَّر وملعقة. أردف:

- شكرًا... آه، هكذا صار طعم القهوة أفضل. يقول إن الفتاة كانت مُغمضة العينين حين مس الصليب ذراعها، ولم تعرف حتى أنه صليب، وسألني عن تفسيري لهذه التفصيلة! لم يكن لدي سوى تفسير واحد أقدمه له، بلا أدلة كفاية، ولا فحصٍ متأنٍّ للحالة، فربما خمنت الفتاة كينونة ما يوضع على ذراعها. ربما سمعت صوت خشخشة حبات المسبحة، أو شيئًا من هذا القبيل.

- غليونك ينطفئ مرة أخرى.

- أعرف، سأمنحه فرصة واحدة أخرى، ثم سأعود للسجائر.

أشعلَت عود ثقاب وقرَّبته من غليونه، بينما راح يسحب الهواء حتى تكوَّر فيه الدخان وتصاعد. قالت:

- ولم يشتتك أمر المقال، والحالة التي سمعت عنها؟

- كلا، أمور كهذه مألوفة، لكنني أتساءل، ماذا يحدث في إبرشية الملاك ميخائيل؟

* * *

شعر جارث بأمعائه تتقلب، وتتقلص خوفًا وهو يُعيد سماعة هاتفه الغارقة في العرق إلى مكانها، ثم مسح كفيه في سرواله.

«نريد أن نزورك يا سيد جارث هذا المساء. أنا والأسقف...»

تُرى ماذا يريدان؟ وما دخل الأسقف، ومن أين هبط عليهم الآن!

كانت حماقة منه أن طلب مساعدة كاهن، بداية من هالوران الذي هرب، والآن هذا الجديد سارجِنت الذي أدخل الأسقف في الأمر. ربما كان الطبيب النفسي اختيارًا

أفضل من البداية.

كلا، الأطباء النفسيون يغوصون عميقًا في الأنفس.

سار بلا هدف نحو حجرة النوم، وجلس على الفراش، مطبق الفم، عاقد الذراعين، أنفاسة عالية ثقيلة، وراح يحدِّق في ورق الحائط المنقوش بالأزهارِ الباهتة، وإلى الموضع الزاهي لأثر صليب فوق فراشه، المكان الذي كان الربُ مُعلَّقًا فيه.

ليس الرب، هو مجرد رجل يهودي مختل..

نظر إلى وجه زوجته الرقيق في الصورة داخل الإطار البيضاوي فوق الخزانة الصغيرة. ثم نظر إلى صورة سوزان وهي في عمر عامٍ واحدٍ، نائمة على بطنها تضحك، عارية كما وقفت أمام الأب هالوران عارية بعد خَمسة عشر عامًا.

انعقدت معدته، وصدح صوت دقات قلبه العنيفة في أذنيه.

رن جرس الباب، فتجمَّدت أوصاله. ماذا يريدون؟ رن مرة أخرى، فابتلع ريقه الجاف، وقام إلى الباب.

قبل أن يعرف جريجوري جارث والأسقف، قال جارث:

- أين سوزي؟

- لا زالت في مَسْكَنِ القساوسة.

- أثمة خطب بها؟

- هل يمكن أن ندخل؟

- أوه..

تراجع جارث عن الباب، وتذكَّر آداب استقبال الضيوف، وأضاف:

- بالطبع، تفضَّلا.

عرَّف جريجوري الرجلين إلى بعضهما. لم يكن جارث واثقًا مما يجب عليه فعله لتحيه الأسقف، فلم يركع، لكن الأسقف كسر العادات وصافح جارث.

عندما جلس الجميع، سأل جارث:

- ماذا حدثَ؟

قال جريجوري:

- لا يوجد ما يستوجب القلق. انتابت سوزان واحدةٌ من نوباتها، هذا كل ما في الأمر. صادفَ أن نيافته كان في الجوار، ونجحنا في تهدئتها. هي ترتاح الآن.

- هل.. حدث.. شيء؟

- لم يحدث ما يقلق.

قال الأسقف:

- سيد جارث، أود أنا والأب سارجِنت أن نُبقي سوزان معنا فترة، نحاول أثناءها مساعدتها على...

قاطعه جارث سريعًا:

- وكيف ستساعداها؟

- سنتحدث إليها.

- مثلما يفعل الأطباء النفسيون.

لمح الأسقف نظرة الغضب في عيني جارث، وتذكَّر ما قاله له جريجوري عن كراهيته للأطباء النفسيين، وكيف يعتبرهم -جُملةً- قذرين متلوي التفكير، فقال الأسقف:

- لا، ليس كما يفعل الأطباء النفسيين.

قال جارث:

- حسنًا، موافق. لطيف منك أن تهتم بحالتها، نيافتك. لكم من الوقت تريدها أن تبقى لديكم؟

- لا أعرف تحديدًا كم يومًا نحتاج..

- كم يومًا؟!

- أجل يا سيد جارث.

قام وسار قلقًا، وراح يهز رأسه ويقول:

- ظننتك تتحدث عن بضع ساعات.. لكن، أيام؟! إلهي.. لا أعرف..

- أتفهَّم معارضتك يا سيد جارث، لكن انظر إلى الأمر تحت هذا الضوء، لو أن طبيبًا قرَّر حجزَ سوزان في مصحة، لكان عليها أن تمكث فيها لأيام، وستكون بمعزل عنك أيضًا. أما في حالتنا، فالفتاة ستكون على مسيرة دقائق منك، تحت رعاية الأب سارجِنت.

قال جارث:

- حسنًا، إن كان الأمر كما تقول... لكن، كيف سيكون الوضع لو تركناها مع الأب وحدهما لأيام؟ هل تعرف ما حدث مع الأب هالوران حين انفردا لمجرد دقائق؟!

أومأ الأسقف وقال:

- أعرف. أنا والأب سارجِنت قادران على حماية أنفسنا يا سيد جارث.

بعد هنيهة قال جارث:

- حسنًا..

- ممتاز!

- سأحضر سُترتي وآتي معكما.

قال جريجوري:

- تأتي معنا؟

أضاف الأسقف:

- ليست فكرة موفقة يا سيد جارث.

- لكني لا أستطيع أن... أقصد، هي ستغيب لأيام، فهل يمكنني أن أراها أولًا؟ أن أتحدث إليها؟

قال الأسقف:

- هي ترتاح الآن يا سيد جارث، تحتاج إلى الهدوء.

- ألا يمكنني حتى أن...

قال جريجوري:

- نحن نفكر في مصلحة سوزان أولًا.

في النهاية استسلم جارث قائلًا..

- حسنًا..

قال الأسقف وهو يتوجه نحو الباب:

- وداعًا سيد جارث.

تبعه جريجوري مُضيفًا:

- سوف نتابع معك المستجدات هاتفيًّا.

وقبل أن ينغلق الباب خلفهما، قال جارث:

- سأتصل بك أيها الأب، سأتصل بك يوميًّا. سوزي طفلتي الصغيرة وسأحتاج أن أعرف كيف تسير أحوالها. بالتأكيد أريد أن أعرف عنها كل شيء.

***

وفي السيارة قال جريجوري:

- عالجتَ الأمر بحكمة.

تساءل الأسقف:

- أتظنني عالجته بحكمة كافية؟ الرجل يرتاب في شيء، لكنه لا يعرف بالضبط فيمَ يرتاب. بالتأكيد سيتصل يوميًّا، وعلينا التعامل معه بحرص شديد، وألا نُضيِّع

الوقت. يجب أن نبدأ فور عودتنا.

قال جريجوري وعيناه على الطريق:

- أيجب علينا ذلك؟

- متى تريد أن تبدأ؟

- متى أريد أن أبدأ؟ لا أريد أن أبدأ من الأساس!

- ما زلت تعاني من مشكلة الإيمان بالشيطان؟

ضحك جريجوري وقال:

- أنا أفكر في الفتاة وحالتها..

- وأنا كذلك!

- في حالة عقلية كحالتها، ما تريد فعله سيكون مفزعًا لها، والفزعُ قد يقودها للجنون، قد يُوقِف قلبها من الصدمة. لا نعرف ما قد يحدث.

- هذه مخاطرة مُجبَرون عليها، أم نتركها على حالتها؟ الفتاة المسكينة تتعذب.

- شيء في عقلي يخبرني أن ثمَّة تفسيرًا علميًّا لكل هذا.

قال الأسقف بهدوء:

- تذكَّر بودلير. هذا الصوت الهامس في عقلك ربما يكون هو العدو الذي نحاربه. تفسير علمي؟ يا لها من خدعة رديئة يا جريجوري، خدعة قديمة بالية. يفسر الماديون كل شيء بتفسير علمي، حتى تضع أمامهم قضية لا تفسير لها سوى الرضوخ لوجود عالم ما ورائي، فيبدأون في ليِّ عنق مفهوم التفسير العلمي يُمنة ويسرة حتى يلائم الأدلة الجديدة على وجود ما لا يصدق.

- أنا لستُ ماديًّا!

- اثبت لي.

- أأنا مذنب حتى تثبت براءتي؟!

قال الأسقف بصوت حادٍّ عالٍ:

- أبرزت ذنبك بنفسك طيلة اليوم عبر كل آرائك. لست مضطرًا لاتباع إجراءات المحكمة الديموقراطية. الكنيسة ليست محكمة.

بعد فترة من الصمت، لخَّص جريجوري للأسقف مكالمته مع زوج أخته، وعندما انتهى قال الأسقف:

- التفسير العلمي.. لا أتوقع أكثر من رجل عِلم. لكن لماذا -كرجل دين- تجد تفسيراتٍ كتلك مُقنعةً ومقبولةً أكثر من التفسيراتِ الروحانية؟ هذا ما يُحيِّرني يا جريجوري. هذا ما يحيرني ويؤلمني.

كانا قد شارفا على الوصول إلى المنزل، فأبطأ جريجوري السيارة وقال:

- نيافتك، لا أجد تفسير زوج أختي أكثر إقناعًا من تفسيرك. كل ما أود قوله هو إعطاء فرصة للرأيين وإخضاعهما للتمحيص.

قال الأسقف:

- حسنًا.. سمعت رأيك. ثم؟

كان جريجوري مشغولًا في رَكن السيارة، فلم يُجِب. أردف الأسقف:

- أترى؟ أنت منغمس في الشك والتخبط. ها أنت تتردد وتبحث عن أسباب كي نتحدث ولا نفعل. أنت تضيع الوقت، وأحمدُ الله أننا عُدنَا للمنزل كي لا تماطل أكثر من هذا. أنزلني من هذه السيارة.

***

الرهبان أشخاص غريبو الأطوار ولا ريب، باركهم الرب، والأساقفة هم مجرد صورة مُكبَّرة من الرهبان. كانت السيدة فارلي هي مدبِّرة مسكنُ القساوسة منذ ظهرِ الشيب في شعرها، وشهدت قدوم ورحيل القساوسة والرهبان، وفي كل مرةٍ يرحَل راهبٌ يأتي آخر في نفس غرابته. لكن هذا الأخير – الأب سارجِنت- هو الأغرب على الإطلاق، لكنه لا يُقارن بالأسقف كريمينجز.

طلبَ منها الأسقف قبل مغادرته أن تُغلَق مع النوافذ. في هذا الجو الحار؟ أمرها أن تحكم غلق النوافذ وتُسدل الستائر، وتوصد الأبواب ولا تسمح لأحد بالدخول حتى لو كان الآتي هو الكاردينال نفسه.

طلب منها كذلك أن تتصل بالأشخاص الذين كانوا على موعدٍ معهم – آل بارلو- وتخبرهم أنه لن يستطيع الذهاب إليهم. ثم أكَّد عليها أن تزيل كل شيء قابل للكسر من الحجرة الإضافية التي تقيم فيها ابنة السيد جارث. بعد كل ما شهدته السيدة فارلي في الردهة، فقد رأت أوامر الأسقف الأخيرة منطقية، فلا داعي للمخاطرة بأغراض قابلة للكسر.

وطلبَ منها الأسقف أن تُحضر حبلًا متينًا، أو شرائط من قماش مجدول.

الحق أن الأوضاع لم تعد كما كانت في منزل قساوسة الملاك ميخائيل منذ بدأت ابنة جارث في التوافد على المكان، خاصة بعد المشاكل التي تسببت فيها للأب هالوران، والآن جاء دور الأب سارجِنت في تحمُّل مسؤولية تلك المجنونة. تلك المخلوقة الهمجية مكانها حفرة قاذورات حقيرة. ليته يستطيع هُداها وإخراج بعض الوحشية والجنون منها بأي طريقة حتى لو كانت الضرب بالسياط.

لكنهم يعاملونها بلطف شديد.. الرهبان صاروا غريبي الأطوار تمامًا.

ها هما يدخلان من الباب الأمامي – الأسقف والأب سارجِنت- وعليها النزول إليهما لترى إن كانا يحتاجان إلى شيء.

سأل جريجوري مدبرة المنزل وهو يدلف إلى الردهة:

- كيف حال الفتاة؟

- لا زالت غائبة عن العالم، ولا زالت تخرِّف في نومها وتهلوس. أغلقتُ باب الحجرة عليها.

- جيد. سيدة فارلي..

- أجل أيها الأب؟

- لكِ أقارب يسكنون في الجوار، أليس كذلك؟ أختك؟

- وزوجها وأبناؤهما الستة. يسكنون على مسافة بضعة أميال من هنا. لماذا تسأل؟

- من الأفضل أن تذهبي لتقيمي لديهم لبضعة أيام.

- إلهي! ولمَ؟

نظر جريجوري إلى الأسقف طالبًا الغوث، فقال الأخير:

- سيدة فارلي، ربما تسوء الأمور قليلًا هنا خلال الأيام القادمة. الوضع سيكون خطرًا.

- خطرًا؟ هنا؟ كيف، نيافتك؟!

- لسلامتك عليكِ...

- لكنني لا أفهم!

- اجلسي يا سيدة فارلي..

جلست، وكذا فعل الأسقف مُضيفًا:

- عليك أن تحفظي ما سأقوله سرًا، ولا تحكه لمخلوق، لا لأختك، ولا لزوجها، ولا للفتاة سجينة الحجرة بالطابق العلوي بالأخص.

- أعدك ألا أخبر أحدًا.

- الفتاة ليست بخير يا سيدة فارلي، ما بها هو أمرٌ عصي على التصديق بالنسبة للأب سارجِنت.. الفتاة...

صمت الأسقف وفكَّر في مناورة أخرى للحديث، ثم قال:

- سيدة فارلي، أنتِ عشتِ وسط الرهبان سنوات طويلة، وربما سمعت بعضًا من مصطلحاتهم حتى صارت مألوفة لديكِ. هل سمعت من قبل عن طرد الشياطين والأرواح الشريرة؟

كان وجه السيدة قد عبس منذ أن طلبا منها أن تذهب لتعيش عند أختها، وظلت على عبوسها وهلة، حتى سمعت آخِر عبارات الأسقف، فانفرج العبوس إلى تعبير مُسطّح مذهول، يشي بالذهول والفهم والصدمة.

ساد الصمت الردهة حينًا، حتى تكلمت السيدة فارلي وقالت بهدوء:

- أفهم.. أهذا هو تفسير حالة الفتاة المسكينة؟

فتح الأسقف فاه ليرد، لكن السيدة فارلي قاطعته مُضيفة:

- في قريتنا منذ زمنٍ بعيدٍ، حين كنتُ طفلةً صغيرةً، كان ثمة رجل يدَّعون أنه مجنون. كنت أسمعه يصرخ في منتصف الليل، أحيانًا ما كانت صرخاته تختلط بالضحكات، وأحيانًا ما كان يتفوَّه خلال نوباته بكلمات بلا معنى بالنسبة لي وقتها. زاره الأطباء والمعالجون، بلا فائدة. انتهى به الأمر إلى الحبس في سجن البلدة، وكنا نسمعه يصرخ من خلف القضبان أغلب فترة استيقاظه، وكان أقوى من باقي الرجال بما لا يُقاس. ثم جاء كاهنٌ من الكنيسة وطلب أن يُلقي نظرة على الرجل المسكين، وحين فعل، تراجع فورًا وجلس يكتب خطابًا للأسقف، لم يكن لدينا هاتفٌ في القرية وقتها، وأرسل خطابه وجلس في مكتب البريد أيامًا ينتظر ردًا! وحين وصله خطاب الأسقف، وجده يحوي نوعًا من الإذن له بفعل شيءٍ ما. ثم عاد إلى الزنزانة، وتصاعد أصوات صراخ كشياطينٍ تُعذَّب في الدَّرك الأسفل من النار. استمر الصراخ لأيامٍ، ولم يستطيع أحدٌ من سكان البلدة النوم، فالصوت كان يدوي في آذاننا ليلًا نهارًا.

وكما بدأ كل شيء فجأة، انتهى فجأة بعد عشرة أيام. الرجل المسكين المُعذَّب مات، لكن كما قالوا، عمَّ وجهه السلام والسَّكينة، لأوَّل مرةٍ منذ أن وعَيْنَا على وجوده في العالم.

كانت السيدة فارلي تحكي وهي تنظر خلف الرجلين، خلالهما، تغشى عينيها سحابةُ الذِّكريات. وفي النهاية، نظرت إلى الأسقف وأردفت:

- أجل، نيافتك، سمعت عن طرد الأرواح الشريرة.

قال الأسقف:

- وسوزان جارث..

- أفهم، نيافتك.. أفهم.

- ولا تجدي عُسرًا في تصديق الأمر؟

- عُسرًا في تصديق الأمر؟ لقد سمعتُ الرجل يصرخ ليلًا نهارًا، نيافتك. سمعته يصرخ بطريقة لا يقدِرُ إنسيٌّ أو حيوانٌ حتى على محاكاتها.

أومأ الأسقف، ونظر نحو جريجوري، وكانت نظرة تُغني عن أي حديثٍ.

قال الأخير للسيدة فارلي:

- أنت تُدركين إذًا السبب وراء طلبنا أن تغادري المكان لفترة؟

- أجل يا أبتاه. لكن إن لم يكن لديكما مانع سأبقى. لا أشعر براحة لترككما وحديكما في وضع مُتأزِّم كهذا. من سيحضِّر طعامكم ويرعى احتياجاتكم؟ أعرف أنكما

رجلان قويان، لكن شخص إضافي معكما لن يضر، ربما تحتاجان لمساعدة.

قال الأسقف:

- كلامُك صحيح، لكننا قَلِقان بشأن سلامتك.

- ماذا يقلقكما يا سيدي؟

- كما تعلمين يا سيدة فارلي، فالشيء القابع داخل الفتاة قد يكون الشيطان ذاته.

قالت السيدة فارلي في حماس وغضب:

- ليتشيطن على غيرنا! هو مجرد قطعة براز بغيضة لا يستطيع مواجهة خادم الرب وأسقف الكنيسة داخل مسكنُ القساوسة الطاهر المجاور لبيت الرب المقدس! يالبجاحته! سيولي الأدبار مع أول كلمات تنطقونها ويعود إلى حيث جاء إن كان يعي مصلحته. أنا لا أخاف القاذورات أمثاله. تستطيعون طردَه وسيعوي أمامكما كالجراء. بعد إذن نيافتك، أريد البقاء هنا.

قال الأسقف:

- يمكنك البقاء يا سيدة فارلي.

- أشكرك! هل تريدان أن تأكلا شيئًا الآن؟

- ليس الآن. نريد الانفراد في الردهة هنا بلا إزعاج لمدة نصف ساعة. أغلقي الباب خلفك من فضلك.

- بالتأكيد. نادي عليَّ إن احتجتني.

وخرجت من الغرف، وسمعا صوت المفتاح يدور في القفل.

قال الأسقف:

- أنت على الأرجح جائع يا جريجوري، لكنني أفضِّل أن تصوم لفترة. الصيام من ضمن التقاليد.

- أجل، بالتأكيد.

- سأصوم معك..

جلس الأسقف على المقعد ووجهه مُظلَّل بالكآبة وثِقل الحِمل. قال بعد لحظاتٍ:

- جريجوري..

- أجل.

- ربما ينبغي أن نُجحم عمَّا نَحنُ مُقدِمين عليه..

سار جريجوري عبر الحجرة، وجلس أمام الأسقف هاتفًا:

- ماذا؟ أتتحدث عن التراجع؟! لماذا؟

- حكاية السيدة فارلي.. الرجل المكسين.. مات.

- هذا ما كنت أحاول إخبارك به، نيافتك. الخطر..

- أعرف.. أعرف..

أومأ الأسقف مرارًا وهو يضيف:

- لكنك كنت وقتها تتحدث عن احتمالية لخطرٍ ما، بينما حكت السيدة عن واقعة حقيقية.

- وتريد أن نلغي الفكرة؟

- ألا تريد أنت؟

- لست مُتأكدًا. لكني أتحدث عنك، وحين تتشكك أنت..

- هذا ليس شكًّا، وليس كما تتشكك أنت. أنا مؤمن بشدة بجدوى وضرورة الطقس، لكن يا جريجوري..

قام الأسقف وراح يذرع الحجرة قلقًا، وهو يقول:

- أن نتسبب في موت إنسان؟ أعتقد أنك تعرف مدى فظاعة فعلٍ كهذا.

في هدوءٍ، قال جريجوري:

- ثمة أشياء أفظع من الموت، نيافتك.

حدَّق الأسقف في عيني جريجوري وقال:

- شكرًا لك. شكرًا لك يا بُني. مُستعد للاعتراف؟

- أجل.

أخرج الأسقف حافظةً جلديةً صغيرة من جيبه، وفتحها كاشفًا عن شريطٍ من قماش بنفسجي داكن. قبَّل الصليب المنقوش على طرفه، ثم وضع الشريط العريض خلف عنقه ليتدلى على جانبي صدره، ثم قال:

- بارتدائي هذا الدِّثار، تتنزل عليَّ رحمة الله وأسمع هذا الاعتراف كما يسمعه الرب.

ركع جريجوري جوار الكرسي وقال:

- باركني يا أبتاه، فقد أذنبت. آخر اعتراف لي كان منذ ثلاثة أيام. ذنوبي هي...

وبعد عشرين دقيقة، أنهى جريجوري اعترافه قائلًا:

- أنا نادمٌ على كل ذنوبي وتائبٌ عنها، ماضيها وحاضرها.

ثم ضمَّ كفيه وراح يتلو صلاة التوبة همسًا، بينما يقول الأسقف باللاتينية:

- ليغفرِ لك ربنا وإلهنا يسوع المسيح...

وصولًا إلى:

- بسم الأب والابن والروح القدس، آمين..

قام جريجوري وهو يقول:

- شكرًا لك يا أبتاه.

***

أشعل جريجوري شموع الطقس، فأضفت على الحوائط ظلالًا عظيمةً لا تنفك تتحرك وتهتز بتحرك اللهب. كلا الرجلين ارتديا ملابس الكهنة الرسمية، يميِّز رداء الأسقف عن رداء جريجوري التطريز الأحمر. وتلفحا بالدِّثار البنفسجي. فتح الأسقف كتاب الطقس الروماني لطرد الأرواح الشريرة وقال:

- تذكر يا جريجوري، نحن والسيدة فارلي الوحيدين الذين يعرفون ما نحن بصدد فعله هنا. سوزان نفسها لا تعرف، ولو عرفت لتسلل الشك إلى عقلك وراح ينهش فيه رويدًا رويدًا وأنت تُفكر أن لردود أفعالها هي محض رد فعلٍ هيستيري. لذا، فلو أبقينا على جهلها...

قاطع فتحُ باب الحجرة حديثَ الأسقف، ودخلت السيدة فارلي بصحبة سوزان. كانت الفتاة هادئة، ترتدي الملابس التي جاءت بها، لكها تنتعل جوربين وخفين منزليين.

قال الأسقف وهو يشير إلى الفراش:

- والآن يا سوزان، تعالي وارتاحي هنا.

قالت سوزان:

- تبدوان...

- رسميين؟ كلنا حب ارتداء الملابس الرسمية من وقتٍ لآخر. لا تُنكري أنَّ ملابسنا بهيَّة أنيقة. اجلسي يا عزيزتي.

جلست الفتاة في توتر على حافة الفراش. قال الأسقف:

- هلا استلقيتِ على الفراش؟

خلعت خُفيها، وتمدَّدت مُحدقة إلى السقف. قال جريجوري للفتاة:

- سأتلو الآن صلاة قصيرة. ألديك مانع يا سوزان؟

هزت رأسها نفيًا. ناول الأسقف جريجوري كتاب الطقس، فبدأ الأخير في تلاوة الكلمات اللاتينية بصوت جهوري، وتتوالى الترجمة الإنجليزية للعبارات في عقله:

- أيها الملاك ميخائيل رئيس الملائكة وأمير الجنود السماوية المجيد، دافع عنا في صراعنا ضد الأرواح الشريرة التي تجوب السماوات...

بدأت عينا سوزان تنغلقان ببطء، وكأنها تعاطت مُنومًا قويًّا. أكمل جريجوري تلاوته:

- ... تعالَ لمعاونة البشر الذي خلقهم الله على صورته، وافتداهم بثمن باهظ من ظُلم الشيطان...

شعر جريجوري بقلقٍ، فنظر إلى الأسقف الذي أشار إليه أن يُكمل، فنظر إلى الكتاب وأكمل:

- .... ارفع صلواتنا في حضرة الإله العلي، لكي تأتيا مراحم الرب، واقبض على التنين الحيَّة الذي هو إبليس والشيطان، وقيِّده واطرحه في الهاوية لئلا يعود ويُضِل الأمم.. بسم يسوع المسيح....

بدأت رأس سوزان تتحرك من جهة إلى أخرى بلا هوادة وكأنها محمومة. ثقلت أنفسها وجريجوري بعد يُكمل الصلاة:

- ...فليبارك الملاك ميخائيل...

بدأت أسنانها في الاصطكاك بصوت عالٍ وسط صمت الحجرة الضيقة.

- .. والرُسُل بطرس وبولس..

صرخت سوزان، وقُذفت خارج الفراش لترطتم بالجدار المُقابل! صاح الأسقف هو يفتح الباب:

- سيدة فارلي! سيدة فارلي! أحضِري الحبل!

-8-
دخول إبليس

انسحق وجه سوزان في الجدار، كأنما يد عملاقة تدفعها نحوه، وانفردت يداها إلى الجانبين مفتوحة الأصابع كالمخالب تخدش الطلاء. بدت سوزان كشهيد مصلوب ووجهه إلى الحائط.

حاول جريجوري إعادتها إلى الفراش، ووجدَ أنه غير قادر على إزاحتها عن مكانها. بمعاونة السيدة فارلي والأسقف استطاعوا بالكاد سلخها عن الحائط، وشعروا بأن جسدها يزن مئات الأرطال. تمسَّكت أصابع قدميها بالبساط وهُم يجرونها نحو الفراش. قال الأسقف وهو يلهث من المجهود:

- الحشيَّة.. تخلصوا منها. ستعيقنا وربما تتمزق أو تُلوث.

أزاحت السيدة فارلي الحشيَّة وأخرجتها إلى الردهة، ثم عادت لمعاونتهما. كان الأسقف وجريجوري قد أرقدا الفتاة إلى الفراش العاري، ظهرها إلى اليايات المعدنية المكشوفة، عيناها شبه مغلقتين، وكانت تقاومهما بقوة رَجُلين. قال الأسقف:

- خذ جزءًا من الحبل واربط كاحليها بقوة إلى الفراش، وسأربط يديها.

حين أتمَّا وثاقها، كانت الفتاة مصلوبة على هيئة النسر المُحلِّق، والحبال تنهش في لحم رُسغيها وكاحليها. نظر إليها جريجوري وتذكَّر آلة التعذيب من العصور الوسطى «المِخلعة». تُقيد إليها الضحية على ذات الهيئة في ظلام قبو، ثم تبدأ عملية التعذيب بتكسير المفاصل.

لكن جسد الفتاة كان سليمًا، أوصالها غير مشدودة، أوتارها بخير، مفاصلها موصولة، ولا يخطِّط أحد لإلحاق أيٍّ مِن هذا بها. لكن، أثمة أعضاء حيوية أخرى قد تتخلع كذلك؟ عقلها؟ روحها؟ أيمكن لروحٍ أن تتخلع وتُدمَّر؟ أن تُنتزع وتُفتَّت وتذروها الريح في الظلمات الأبدية؟ هناك ما هو أبشع من الموت كما قال للأسقف، وثمة ألم أقسى من ألم تهشيم العظام.

التمع وجه الأسقف بالعَرَق وهو يقول لجريجوري:

- اقرأ المزامير..

فتح جريجوري كتاب الطقس، وقرأ:

- يقوم الرب، يتبدد أعداؤه ويهرب مُبغضوه من أمام وجهه..

مدَّ جريجوري يدَه تجاه الأسقف، فوضع الأخير فيها صليبًا ثقيلًا، رفعه جريجوري إلى أعلى مُردفًا:

- هو ذا صليب الرب، اهربوا أيها الأعداء!

من بين شفتي سوزان خرجت أنّة خفيضة، أنّة مريض مُزمن. تولى الأسقف الدفة دون الحاجة لكتابٍ وقال:

- لقد غلب الأسد من سِبط يهوذا أصل داوود..

أكمل جريجوري:

- لتحل علينا رحمة الله..

صارت الأصوات الصادرة من سوزان أقرب لعواء وحشي كريه مُرعِب، ورغم أن عينيها ظلتا مغلقتين، إلا أن شفتيها كانتا تنفرجان وتلتويان كاشفتان عن أسنانها.

همست السيدة فارلي وهي تتراجع عن الفراش:

- إلهي! انظرا إلى وجهها.. انظرا إلى وجهها! ملامحها صارت كملامح حيوان! إلهي! ارحمنا..

صاح جريجوري:

- نحن نطردك...

مَزَّقت صرختُها الهواء، صرخة شهيد يخترق الرُّمح أحشاؤه..

- أطردك، يا كُلّ روحٍ نجسةٍ، وكل قوى شيطانية...

وبدأت سوزان في الحديث قائلة بصوتٍ حادٍّ هامسٍ:

- توقف.. أوقف هذا الاستخفاف.

لم تفتح الفتاة عينيها. سمعوا مقاطعتها ولم يكترثوا لها، واعتبروها علامةً جيدةً على تأثير الصلوات، لكنهما قلقا منها. أكمل جريجوري ولم يتوقف إلا لرسم علامة الصليب، فصدر صوتٌ من بين شفتي سوزان يتساءل:

- صَوتُ مَن هذا الذي يمزق جسدي؟

أكمل جريجوري صلاته، ورسم الصليب على الهواء مرة أخرى، وقال الصوت على لسان سوزان:

- من يُعذِّبني؟ مَن يجرؤ؟

رفع جريجوري عينيه عن الكتاب، ورأى ملامح الفتاة الملتوية المُرتعبة. لأوَّل مرة منذ بدأ الطقس، انفتحت عينا الفتاة، وببطءٍ انزاح جفناها ليكشفا عن عينين تنظران إلى عينيّ جريجوري في ثباتٍ، وكأنهما كانتا تحدقان به من خلف الأجفان المغلقة طيلة الوقت. وكانتا تتأججان بالكراهية والجنون.

صرخت الفتاة:

- بائسٌ وقح!

شعر جريجوري برغبة مُلحَّة في الرد على الفتاة بدلًا من الالتزام بالقراءة من الكتاب، لكنه قاومها وأنهى الطقس ببطءٍ بصلاة أخيرة، ورشَّ الحجرة بالماء المقدس. وخلال كل هذا قاطعته اعتراضاتُ الفتاة، لكنه تجاهلهَا في عِندٍ. في النهاية قال الكائن المُقيد:

- مَن فعل هذا؟ أي مخلوق يجرؤ؟ ما اسم اللعين؟!

قال جريجوري:

- لا يهم اسمه، المهم اسمك أنت.

- اسمي..

قاطعت الفتاة نفسها، وانفجرت في ضحكة مقيتة، ثم قالت:

- سأترك هذا الأمر لك كي تكتشفه بنفسك.

- مَن أنت؟

قال الصوت ببراءة مُصطنعة:

- أنا؟ مَن أكون؟ لماذا؟ أنت تعرف مَن أكون، أنا مجرد فتاة صغيرة، فتاة صغيرة لطيفة. طفلة.. أنا طفلة نقية..

ثم انفجرت مرة أخرى في الضحك. ردَّد جريجوري:

- طفلة..

- طفلة.

- طفلة نقية تقول..

- نقية كالثلج، بريئة بلا أي وَسخ.

- بلا أي وسخ. هل أنتِ نفس الطفلة البرئية النقية التقية التي حاولت إغواء الأب هالوران؟

صاحت:

- كذب! كذب!

- كذب؟

- كل كلمة هي محض كذب. أنت تصدقني، أليس كذلك؟

جذبَ جريجوري مقعدًا، وجلس جوار الفراش وقال:

- احكِ لي كل شيء بطريقتك.

- بطريقتي؟

لمعت عينا الفتاة وضاقتا، ونظرت نحو السقف..

- لكن حكاية كتلك لن تسُرك، وأراهن أنك لن تفهم تفاصيلها.

- ولمَ لا؟

- ماذا تعرف عن أمور كتلك؟ أنت لست رجلًا عاديًّا، أنت راهب.

- أنا راهب، وأنا رجل.

قالت الفتاة ضاحكة:

- أنا سأخبرك..

ثم بدأت سوزان في الحديث همسًا، فمال جريجوري نحوها كي يسمعها.

- الرجل.. الإنسان عامة، هو كومة من روث، مخلوقٌ على هيئة الروث الذي صنعها، وهذا الجنس المنحط موجود هنا ليبحث عن حفرة من الروث يدفن نفسه فيها.

ضحكت دون صوت، وراح جسدها يهتز حتى انتهت نوبة السخرية، فأكملت كلامها بصوت أقوى:

- وهذا الروث الذي تغرقون فيه وتطلقون عليه جميل الأسماء.. الحب، النشوة، السمو...

وانخفض صوتها مجددًا وأردفت:

- لا شيء في كل هذا الروث جميل أو يستحق. ربكم كاذب..

ردَّ جريجوري همسًا:

- وأنت؟

- أنا؟ أنا بالطبع بشرية، ألستُ كذلك؟ فتاة صغيرة برغباتٍ قذرة.

ثم صاحت:

- روث!

تراجع جريجوري من وقع صوتها العالي على مسامعه. ضحكت سوزان، فأبعد الكرسي وفتح كتابه مرة أخرى في ضيق. صاحت الفتاة ساخرة:

- ستقرأ مرة أخرى؟ ياللطفك!

بدأ جريجوري الطقس مرة أخرى من بدايته، ولم تقاطعه إلا عدما وصل لعبارة « لن تجرؤ على خداع البشر..»

- البشر حثالة!

- .. أو على إهانة تضطهد الكنيسة..

- الكنيسة كومة من القاذورات..

رسم جريجوري الصليب على نفسه وقال:

- الابن يأمرك أن...

- ابن حثالة..

- الروح القدس تأمرك..

صاحت الفتاة:

- كفا!

أكمل جريجوري وهو يرسم الصليب على نفسه والفتاة تطالبه بالتوقف بصوتٍ أعلى في كل مرة.

- كفا، كفا، كفا! ماذا تريد؟!

ذكَّرته صرخاتها باستغاثات المُعذبين في الأقبية في العصور الوسطي. ركعت السيدة فارلي على ركبتيها وقالت:

- أبتاه.. أيها الأب جريجوري.. الطفلة.. الطفلة في عذاب مهين، أعليك أن تُكمل؟

تجمَّد جريجوري مكانه، بكت السيدة فارلي وأردفت:

- أعليك أن تستمر في تعذيبها؟

قال الأسقف:

- أكمِل يا جريجوري..

حاول جريجوري أن يتكلم، لكنه فشل. قال الأسقف:

- أكمِل..

فجأة استدار جريجوري وغادر الحجرة، تبعه الأسقف. في الردهة تحدَّثا همسًا بلهجة حادة.

قال جريجوري:

- ألم ترَ حالتها؟ كيف أكمل؟

-عليك أن تستمر!

- إن كان علينا الاستمرار، فأكمِل أنت!

ومدَّ يده بالكتاب إلى الأسقف الذي تردَّد في أخذه. قال جريجوري:

- أكمِل أنت إن كنت تنتوي المقامرة بعقلها وحياتها. خذ الكتاب إن كنت تجرؤ!

دفع الأسقف الكتاب إلى الأرض وقال:

- أجرؤ؟ أنا أجرؤ وأعتزم بكل قوتي على الاستكمال. أنت تسألني إن كنت أجرؤ؟ لستُ مُتشككًا ولا فريسة للكلمات. لستُ جبانًا!

وقفا في الردهة، يتردد في الهواء صدى غضبهما وصوتيهما المتعالي. لم يتحرك أحدهما من مكانه، وكأنهما مقيدان إلى موضعيهما.

سمعا عبر باب الحجرة المُغلَق ضحكة سوزان الشريرة، وكان من الصعب إغفال كونها ضحكة انتصار. كسر الصوت قيدهما، انحنى جريجوري يلتقط الكتاب، ويزيل الغبار عنه، ثم يسير بضجرٍ إلى الحجرة يتبعه الأسقف.

وقف جريجوري عند رأس الفتاة وفتح الكتاب عند الموضع الذي أغلقه عنده، ثم أغلقه فجأة تحت نظر الأسقف.

الإنكار.. هذا الشيء الذي يفوح من الفتاة في أمواج تقشعر لها الأبدان. تذكَّر مقوله جوته: «أنا الروح المُنكِرة». وتذكَّر أوبرا بويتو التي شاهدها منذ سنواتٍ في روما، والمأخوذة عن كتاب جوته، وومض إلى ذهنه صورة الممثل المُلطخ وجهه بالأصباغ وهو يكرر العبارة باللاتينية: سون سبيريتو كي نيجا. العبارة تتردد بينما تنسحب الموسيقى مُتردية إلى حفرة الجحيم.

ونظر جريجوري إلى سوزان جارث مُفكرًا في كونها هي الأخرى روحًا مُنكِرة. كلاهما يتأرجح بين الإيمان والشك.

حسنًا، سنرى ماذا يمكن أن نفعل بهذا الشأن، لننتزع من الموقف اللعين شيئًا إيجابيًّا، لننتزع الحقيقة.

سأل بصوت مُسطحٍ مُتعب:

- مَن أنت؟

- أنت سألت هذا السؤال من قبل.

كرَّر دون أن يغير نبرة سؤاله:

- مَن أنت؟

عادت النبرة البريئة المُصطنعة إلى سوزان وأجابت كأنها تغني:

- اسمي سوزان جارث، عمري ستة عشر عامًا، أدرس في مدرسة القلب المُقدَّس، أعيش في...

هَدر صوتُ جريجوري في يأسٍ:

- أيتها السيدة العذراء!

لم ينبس أحدٌ ببنت شفة في الحجرة، وبدا وكأن الجميع توقَّف حتى عن التنفس.

كان ظِلُّ جريجوري ضخمًا ثابتًا على الحائط، بينما يتأرجح لهب كل شمعة ويطول ويقصُر. قال الأسقف راجيًا بصوت خفيض:

- جريجوري، رجاءً، أكمل.

أومأ جريجوري وقال بصوت تعالى مع كل عبارة:

- بسم يسوع المسيح، وأمه العذراء المباركة مريم العذراء..

ثم رفع الصليب عاليًا وقال بصوت هادر:

- قُل الحقيقة!

ضحكت سوزان، لكن صوتها ارتجف من الرعب تحت قشرة السخرية وهي تقول:

- وما الحقيقة؟

- مَن أنت، ما أنت، ما اسمك؟

صاحت سوزان:

- كفا! كفا!

- ما اسمك؟!

-كفا!

ألصق العرق ملابسها على جسدها، وتدحرجت عيناها في محجريهما، وتقوس ظهرها فارتفعت بطنها وظهرها.

- ما اسمك؟!

- اسمي..سأقول لك اسمي..

- هذه المرة أريد الحقيقة!

- الحقيقة.. أجل.. سأقول الحقيقة..

لعقت سوزان بلسانها الجاف القشور عن شفتيها وأردفت:

- أنا...

تلاشى صوتها وراحت عنها الكلمات. همس الأسقف:

- أعطها ماء.

نظرت السيدة فارلي حولها، ولم يكن ثمة شيء يُكسَر في الحجرة، بالتالي لم يكن هناك أي قوارير أو أوعية، فدخلت إلى الحمَّام المُرفَق، وبينما تجلب الماء قال جريجوري:

- لو كذبت عليَّ هذه المرة، سأقسو عليكِ لدرجة لن تتخيليها، مفهوم؟

جلبت السيدة فارلي الماء وقرَّبته من شفتي الفتاة، قال الأسقف:

- هذا يكفي.

قال الفتاة وهي تَعب الماء:

- كلا، أريد المزيد..

راح الماء يغرق صدرها ويزيد ملابسها ابتلالًا، ثم يتساقط على الأرض حتى أفرغت الكوب. قال جريجوري:

- والآن اخبريني، مَن أنت، ما اسمك؟

قال بصوت واهن حتى إنهم مالوا عليها كي يسمعوا:

- أنا.. لي أسماء عديدة.. ابن الصباح، حامل الضياء، أمير الظلام، العدو، الخصم، لوسيفير، إبليس، الشيطان!

التفت جريجوري إلى الأسقف وعلى وجهه ارتسم الفخر. تساءل الأسقف إن كان ما يراه على وجهه شيء آخر. شك؟ سخرية؟ أو مجرد هيستيرية الفوز بالمعركة؟

من الفتاة صدر صوت قرقرة وحشرجة، والتفتوا إليها ليروا الجنون المُرتسم على ملامحها، وجسدها يتقلص، وأصابع كفيها وقدميها تنثني، بينما يتدفق من فمها مادة نتنة الرائحة تغطيها وتتناثر على الحائط وتغرق الأرض.

-9-
الجحيم مُوحِل

كان الملك مصممًا على عدم التنازل. ألقى بكلماتٍ مُتحدية على خصمه اللاهث وتراجع بعيدًا، وشعر كأن حِملًا أثقل من جدران القلعة ينزل من فوق كتفيه. في الخلفية، تُلطخ الهواء صرخات الصراع المُميت.

فكر في النتائج الفظيعة للاستسلام.. القهر وتقبيل الأرض تحت أقدام خصومه، صيحات الرعاع، الإهانة والعار. لا، الاستسلام غيرُ وارد، الموت أفضل.

الموتُ أفضل..

كان جريجوري مُحاصرًا بواحد من تلك الأحلام الحية المُتجلية السينمائية، والتي تزوره من وقتٍ لآخر. أحيانًا ما تكون أحلامًا جميلة، وأحيانًا مُفزعة. أحيانًا ما تكون واضحة المعالم، وأحيانًا تكون سخيفة بلا مغزى، مُؤلَّفة من بقايا الروايات، وحكايات العهد القديم.. والمسرحيات، خاصة مسرحيات شيكسبير..

رفع الملك درعه أمام جسده وهتف: استسلم يا ماكدُف! وابتسم بهدوء. ثم أضاف كلماتٍ أخيرة وهو يلهث: وملعونٌ من يستسلم منا!

كان جريجوري في حُلمه هو الملك، نظر إلى ماكدُف وطوَّح سيفه الثقيل تجاهه، لكن ماكدُف تفاداه. تحَضَّر الملك لضربة أخرى، لكن ماكدُف دفع سيفه إلى أحشاء الملك. سمع جريجوري صوت سيفه يسقط على الأرض الحجرية بينما يدير ماكدُف سيفه الخاص في بطنه، ثم يُخرجه..

الملك يلهث في ألم عظيم..

من خلال رؤيته المُشوشة، يرى جريجوري خصمه يرفع سيفه من أجل ضربة قاضية موجَّهة إلى عنقه.

وأمام جريجوري وقفت الأخوات العاصيات، الساحرات من مسرحية ماكبث، والتي قادته نبوءاتهن إلى موقفه هذا. كُنَّ محاطات بالسَّوَاد والضباب، تُشعُّ أجسادهن العارية النحيلة بالضوء. ببطءٍ، تحرَّكْنَ نحو بعضهن البعض، واندمجن في كيانٍ واحدٍ مُريعٍ، أومأ لجريجوري في تحيةٍ صامتةٍ.

مدَّ الكيان يده إلى جريجوري، فأخذها مُضطرًا. تشبث الضباب بكاحليه وهو يسير خلفه، ومن بعيدٍ سمعَ نحيبًا كأنما عزف مزمار القِرَب. عندما اقترب والكيان من الصوت أدركَ أن ما يسمعه هو أنينٌ صاخبٌ مُلتاع من امرأة. تشهق ثم تصرخ، تصمت حينًا ثم تعيد الكرة مُجددًا.

رآها جريجوري عندما بدأ الضباب في الانقشاع، فتوقف. كانت عارية، يلتمع جسدها بالعرق تحت الضوء الأحمر. كانت تجلس على عرشٍ وتصرخ. على

رأسها كان ثمة تاج، وفي يديها قضيبان من معدن، وعلى فخذيها صولجانٌ ملكي. كانت زوجته، الملكة السابقة. كان التاج والقضيبان والصولجان ملتهبين.

أشار الكيان إلى عرش مماثل جوار عرش الملكة وقال وهو ينحني ضاحكًا:

- حيَّوا الملك المُتوَّج أبدًا!

تعثر جريجوري في طريقه إلى العرش. نظر تحت قدميه، ومن خلال الضباب رأى بانكو، حليفه السابق، ويديه وقدميه مُقيدين بالأشواك إلى الأرض، وقد فقد وجهه ملامح الخُبث والدهاء التي ألِفها جريجوري فيها.

تذكَّر حين جاءه بعد مقتل الملك دَنكان، ماذا همس له؟ أيًّا كان، فقد علم جريجوري أنه قد تحالف مع الساحرات الثلاث، وأن قتله قد وَجبَ.

ها هو الآن ينظر إلى قاتله في دهشة وعذاب. تبادل القاتل والقتيل نظرات فهم. الشر تلاعب بهما وصار الاثنين إلى الجحيم.

تصاعد دخان أصفر كبريتي وحَجَبه عن جريجوري. كان يختنق وقد غاب عن الأنظار.. فرغم كل شيء، الجحيم مُوحِل.

***

استقيظ جريجوري فجأة، غارقًا في العرق، يخرِّف بإجابات لأسئلة لم يُسألها في الواقع.

ثم وجد نفسه في كامل ردائه، جالسًا على كرسي المكتب. وتذكَّر أنه والأسقف قد منحا نفسيها استراحة قصيرة من طقس طرد الأرواح الشريرة الذي استمر طيلة الليل. وبينما تُحضِّر السيدة فارلي الإفطار، أغمض جريجوري عينيه لوهلة..

ما معنى هذا الحلم؟ فكرة أن يُعذَّب المرء من أجل آثامٍ لم يرتكبها فكرةٌ سخيفة بلا أساسٍ في عِلم اللاهوت. فلمَ حَلُمَ بها؟

لم تساعده تلك القيلولة أبدًا.

نظر إلى الساعة، وكانت الثامنة صباحًا. قام بصعوبة وعقله مُتخمٌ بالأفكار، وسار إلى حجرة الطعام.

-10-
لا تسعَ لمعرفة المزيد

كانت السماء مُعتمةً حاجبة للضوء كزجاج نافذة مُتسخ. ضوء في لون الرصاص يملأ حجرة الطعام إذ فتحت السيدة فارلي الستائر. قالت وهي تهز رأسها:

- الجو كان صحوًا لمدة أسبوع، وخبراء الطقس توقعوا استمرار الأجواء المُشمِسة.. والآن انظر! جو مثل هذا في يومِ أحد..

تسرَّب إلى مسامعهم صوتُ القداس من الكنيسة القريبة. قال جريجوري:

- صحيحٌ. اليوم هو الأحد، كدت أنسى.

فرك جبينه وهو يردف:

- أتساءل كيف أحوال مُساعد الأب ستيفانسكي مع شعب الإبرشية.

صبَّ الأسقف لنفسه بعضَ القهوة وقال:

- يبدو من صوت القداس أن كل شيءٍ على ما يرام. لا تقلق.

كشفت السيدة فارلي عن تلٍ من خبزٍ مدهون بالزبد، وقالت:

- تفضلا..

رغم الرائحة الشهية قال جريجوري:

- لا أريد سوى القهوة.

قالت مُدبرة المنزل في جدية:

- لم تشرب سوى القهوة طيلة الليل يا أبتاه، ولم تأكل شيئًا منذ الأمس. كُل شيئًا وإلا ستمرض.

وافقها الأسقف، وتلا صلاةَ شكرٍ قبل أن يمد يده إلى الخبز ويبدأ في تناوُل إفطاره. قالت السيدة فارلي:

- سيكون البيض جاهزًا خلال لحظات لو أحببتما..

قال جريجوري:

- لا داعي..

وقال الأسقف:

- لا يناسبني البيض، أنا أوافقه الرأي. ربما نوَدُّ بعضًا من المربى.

أومأت السيدة فارلي وغادرت إلى المطبخ. سأل جريجوري الأسقف:

- كم مرةَ كررنا الطقس ليلة أمس؟

- ست مرات على ما أعتقد. ست مرات كاملة ولم أعدّ المرات التي قاطعتنا الفتاة فيها فاضطررنا للبدء من جديد.

- وكم مرة نحتاج كي نجد نتيجة؟

- لا يوجد طريقةٌ نعرف بها تحديدًا. في الحالة التي ذكرتها لنا السيدة فارلي، الأمر استمر عشرة أيام، في حالات أخرى تكرر الطقس بشكل مستمر لثلاثة وعشرين يومًا.

- ثلاثة وعشرين يومًا؟!

أوما الأسقف وقال:

- إيرلينج، في ولاية أوماها، ١٩٢٨. هل لا زلت في شكٍّ بعد ما صارحك باسمه وماهيته؟

- ما زلت...

عادت السيدة فارلي تحمل عدة أوعية من المربى وقالت:

- هذه مربى الفراولة، وهذه برقوق، وهذه.. خوخ..

ووضعتهم على الطاولة. شكرها الأسقف فعادت إلى المطبخ. قال جريجوري:

- أنا أتحفظ على إصدار حُكمٍ الآن. الاسم نُطِق على لسانٍ بشريٍّ.

- هو من حرك الشفاة البشرية، هو من يحرك الفتاة كما تُحرَّك الدُّمى.

- ربما. لكن الكلمات كانت كلماتها. أسماء الشيطان تلك قد تكون سمعتها في مكانٍ ما أو قرأت عنها في الكتب.

- والبذاءات؟

البذاءات بدأت على هيئة شتائم أولًا، ثم تطورت إلى ألفاظ لا تُطَاق، وأحاديث جنسية فاسقة حتى إنهما أخرجا السيدة فارلي من الحجرة. سأل الأسقف:

- وهل قرأت مثل هذا الفُحش في الكتب؟

- ثمة كتب فاحشة للغاية قد تكون قرأتها في أيِّ مكانٍ بعيدًا عن بيتها، بعضها يحوي رسوماتٍ توضح وتفسر كل شيء. أما الألفاظ القديمة التي تتحدث بها، فقد تجدها في مئات من الكتب العتيقة والروايات والأفلام التاريخية. يمكن أن تكون قد التقطت تلك الألفاظ من التلفاز مثلًا.

- لكن لماذا؟

- لماذا؟

ردَّد جريجوري الكلمة وتراجع في كرسيه مُضيفًا:

- لماذا زعمت عشرات الفتيات في مدينة سالم أنهن على علاقة بالشيطان، ولم يعترفن بكذبهن إلا عندما رأوا أول امرأة منهن تُحرق بتهمة السحر؟ كل هذا له علاقة بخيالهن المراهق الجامح. قد تزعم سوزان كل هذا لجذب الانتباه مثلًا.

- إذًا تعتقد أن الفتاة...

- أتحفَّظ على إبداء حكم الآن، هذا هو كل ما في الأمر. لست وحدي مَن طلب أدلة قاطعة كي يؤمن. «فقالَ له التلاميذ الآخرون: قد رأينا الرب. فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أؤمن.» ولم يؤمن توما حتى رأى بنفسه.

قال الأسقف وهو يصب لفسه كوبًا آخر من القهوة:

- أجل.. اقتباس دقيق وفي محله. لكن لمَ لم تذكر باقي الآيات؟ «قال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا.»

قام جريجوري وسار نحو النافذة في عصبية قائلًا:

- حسنًا.. باركهم الرب جميعًا. لكن الشكّ لم يجعل توما مُذنبًا ولم يحجب عنه القداسة. انتابه الشك بينما صدَّق الجميع، وأنا أحب توما، وهو المفضل لدي من بين جميع الرُسُل والقديسين. أشعر وكأنه من أقاربي.

- لا بأس طالما لا تعتبر نفسك مُكافئًا له. فالله لا يمنح الأدلة الملموسة لجميع خلقه يا جريجوري، لا تبالغ في تقدير نفسك، ولا تضع نفسك في مصاف الرسل والقديسين.

التفت جريجوري إلى الأسقف وقال مُتهكمًا:

- وهل اختلفت الأمور إلى هذ الحد من وقتها؟ الحب والكراهية، الصواب والخطأ، الخير والشر؟ هل تغيَّر الله؟

وضع الأسقف فنجانه في طبقه بهدوء وقال:

- ضربة موفقة.. فزت في هذه الجولة.

***

كان الوضع مُحرجًا للغاية..

لفت نظر فستان السيدة بارلو نظر الحضور في الكنيسة، وتلقَّت الإطراء حول أناقتها وجماله الأخَّاذ حتى بعد أن تجاوزت الأربعين.

لكن الحرج والضيق لم يتزايدا إلا عندما شعرت بأن شيئًا غامضًا يدور من خلف ظهرها. في البداية كان الأمر الذي أخبرتها به السيدة دانهام منذ أسابيع، واعتذار الأب سارجِنت عن زيارة العشاء، واليوم كان حديث عائلة شاندلدر، والآن..

شاب صغير من الكنيسة يحضر القداس بدلًا عن الأب سارجِنت، دون أن يوضح أحد السبب. لم تحب السيدة بارلو المفاجآت قَط، كانت تعيش في حياة منظمة ولا ترى سببًا يبرر للآخرينِ سوءَ تنظيم حيواتهم. كان المجتمع يحترمها لانضباطها

وتنظيمها، ويجعلها قائدةَ مُحترمة للعائلات، وتشعر هي بالمسؤولية تجاه مجتمعها وعليها سبر غموض ما يحدث حولهم.

طلبت من زوجها أن يعود للمنزل بعد القداس، وأنها ستتبعه لاحقًا. ثم سارت إلى مسكن القساوسة وقرعت الجرس. فتحت السيدة فارلي الباب وقالت:

- صباح الخير يا سيدة بارلو.

- صباح الخير. هل الأب هنا؟

أجابت مدبرة المنزل مُتبعة التعليمات:

- هو لا يستطيع مقابلة أحد الآن يا سيدتي.

- أتمنى ألا يكونُ مريضًا.

- أوه، كلا.. لكن...

قاطعتها السيدة بارلو:

- أنت ترين أننا جميعًا قلقون عليه، هلا أخبرته أنني أريد مقابلته؟

- لكن الأب قال...

- قولي له إنني هنا.

أرضخت العبارة السيدة فارلي تحت ثقل القوة والسُّلطة التي قالتها بها السيدة بارلو، فقالت:

- حسنًا.. هلا دخلتِ يا سيدتي؟

ودخلت السيدة بارلو إلى المسكَن، وتركتها مدبرة المنزل وحيدةً في الردهة. ظلت تنظر حولها مُتفحصةً كمحقق يجمع المعلومات بحثًا عن أدلة. بعد قليل جاء جريجوري.

- صباح الخير يا سيدة بارلو. إجلسي.

جلست على كرسي، مفرودة الظهر، معقودة الكاحلين وقالت:

- شكرًا يا أبتاه. أنا عُدت لتوي من القداس وفوجئت أن كاهنًا غيرك يؤدي الطقوس. خِفتُ أن تكون مريضًا.

- كلا، كلا.. شكرًا لاهتمامك.

بعد هنيهة صمتٍ غيرِ مُريحة، وجدَتْ السيدة بارلو أن إجابة جريجوري لم تُشفِ فضولها، فاقلت:

- كلنا شعرنا بخيبة الأمل حين لم نرَك هذا الصباح يا أبتاه، كنت قد انتظرت زيارتك على العشاء أمس، وسألني الجميع لمَ اعتذرت عن المجيء، ولم أعرف بما أجيبهم. اعتقدنا جميعًا أنك مريض.. هل أنت واثقٌ أنك بخير؟ لا تبدو طبيعيًّا.

مرَّر جريجوري كفه على ذقنه غير الحليقة وقال:

- أنا بخير يا سيدة بارلو. آسف بشأن إلغاء زيارة أمس، ربما نسيت السيدة فارلي أن توضح لكم أنني مشغول في بعض الأعمال الجانبية الخاصة التي قد تمنعني من حضور القداس لعدة أيام.

قالت السيدة بارلو بإبتسامة سخيفة:

- يُهلكك منصبك، ويبدو أنه يبقيك مستيقظًا طيلة الليل.

- أجل..

ثم أدرك جريجوري أنه ينزلق إلى فخٍّ. قالت:

- أعرف بعض الأصدقاء كانوا ساهرين، وقد رأوا الشموع موقدة في المنزل حتى الثالثة صباحًا.

قال جريجوري بلهجة جافة:

- هذا صحيح.

- قالوا كذلك.. لكني أجد ما قالوه عسير التصديق.

- أكملي حديثك يا سيدو بارلو.

هزت كتفيها حرجًا وقالت:

- قالوا إنهم سمعوا أصواتًا.. ضحكات أنثوية عالية، صرخات مدوية، صوت أشياء تُهشَّم..

- و..؟

ضحكت في تهذيب وقال:

- قالوا إن الأصوات بدت لهم وكأنه حفلٌ جامحٌ..

ضحك جريجوري هو الآخر وقال:

- لم تكن ثمة حفلات هنا ليلة أمس يا سيدة بارلو، لم تُقَم أيُّ حفلاتٍ سواء جامحة أو عادية.

قالت وهي تنظر إلى قفازيها الصغيرين:

- أفهم.

سمع جريجوري صوت خطوات فوق السقف الذي يعلوه، وعرف أن الأسقف لا يطيق صبرًا حتى يعود ليكملا طقس طرد الأوراح الشريرة. قال جريجوري:

- أثمة شيء آخر تريدينه يا سيدة بارلو؟

تحولت نبرتها إلى نبرة مباشرة وقالت:

- أريدك فقط أن تعرف أن لدي عددًا كبيرًا من الأصدقاء، أصدقاء مؤثرين، وأغلبهم لا ينتمون لهذه الإبرشية.

- معذرة، لا أفهمك.

- ربما تتذكَّر عائلة دانهام.

- دانهام؟

صمت قليلًا ريثما يتذكَّر ثم تساءل:

- من إبرشية القديس فرانسيس؟

- أجل.. من إبرشيتك القديمة.

كأن خنجرًا انغرس في أحشائه، أدارت هي الخنجر بقولها:

- باختصار، سبب نقلك إلى هنا صار سرًا مفشيًا.

توقف صوتُ الخطوات من الطابق العلوي، ربما تواجههم مشكلة مع الفتاة. وجد جريجوري عسرًا في التركيز مع حوار السيدة بارلو التي قالت:

- الأب هالوران كان رجلًا ذا سيرة عطرة هنا، وأي بديلٍ له سيكون كمن ينتعل حذاءً كبيرًا عليه. نحن نتمتع بعقول متفهمة في هذه الإبرشية، وقادرون على تجاوُز عن العديد من الأمور، لكن عندما يحتاج البديل إلى بديل، وحين تشيع الأخبار عن حفلاتٍ ماجنة، وحين أجدك غير حليق في صباح يوم أحد، غير قادر على حضور القداس حتى.. فماذا تظنني..

- سُحقًا!

صدرت الكلمة بصوتٍ واضح عالٍ، ومن حنجرة أنثوية، مُحترِقة الحوائط والأسقف، ثم تبعت السبة ضحكات ماجنة.

نضح العرق من كفي جريجوري، وأشرق وجه السيدة بارلو بما سمعته، سألت:

- ما هذا؟!

- لا شيء.

- ما هذا؟ من هذه؟

- رجاءً.. أنتِ مُخطئة تمامًا فيما استنتجتِه. الصوت هو صوتُ شخصٍ أساعده، شخص...

- الصوت آتٍ من أعلى..

- أعرف، لكن...

- مِن هنا بالأعلى يا أبتاه؟

لم يرد جريجوري.

- سألتك سؤالًا، وكرئيسة للإبرشية، وعلى ضوء ما سمعناه عن عملك في إبرشية القديس فرانسيس، فأنا أطالبك بإجابة. من المرأة بالأعلى؟

قال جريجوري في عصبية:

- سيدة بارلو، أنتِ ترغمينني على أن أخبرك أن ما يحدث ليس من شأنك.

لم تكن صفعة على الوجه لتذهلها أكثر مما أذهلتها عبارة جريجوري، فقالت:

- ليس من ..؟ حسنًا أيها الأب سارجِنت. أرى أنك لا ترحِّب بي في... ماخورك!

قامت وتوجهت نحو الباب سريعًا، وقبل أن تخرج هتفت:

- سيصل خبر ما يحدث هنا إلى الأسقف كريمينجز..

وقبل أن يرد جريجوري كانت قد غادرت.

***

كانت الحجرة في الطابق العلوي تفوح برائحة المطهرات. فبَعد نوبة القيء التي انتابت سوزان ليلة أمس، قامت السيدة فارلي بغسل وتطهير كل شيء حتى الحوائط، وخلعت عن سوزان ملابسها الغارقة في القيء والعرق ووضعت الفتاة في حوض الاستحمام، وغسلتها من رأسها حتى قدميها. ثم غسلت ملابسها وعلَّقتها لتجف داخل الحمَّام.

قيدوا سوزان مرة أخرى إلى السرير، لا ترتدي سوى رداء فصَّلته لها السيدة فارلي من فستان قديم لديها، مُستخدِمة العشرات من دبابيس الملابس التي تُغلق فلا تخدش الجلد.

عبرت نوبة الهياج التي فضحتهم أثناء زيارة السيدة بارلو، وصارت الفتاة الآن هادئة تتنفس بانتظام. سأل الأسقف عن الزيارة، ولخَّص له جريجوري ما حدث.

لاحظ الأسقف عُمق الاكتئاب المُرتسم على ملامح جريجوري، بعد أن حكى شكوك السيدة بارلو وتلميحاتها.

- أتساءل عن رد فعلها حين تعرف أننا -أنا وأنت- شركاء في الجريمة.

لم يستطِع جريجوري سوى التفكير في فضيحته القديمة، والتي ظنَّ أنه قد تجاوزها. قال للأسقف في حنقٍ:

- بداية جديدة في إبرشية لا يعرفك فيها أحدٌ؟ هه؟ هذا ما قلته لي عن سبب نقلي. كيف أكمل حياتي هنا، نيافتك؟

قال الأسقف في رفق:

- تكمل حياتك كما نكمل جميعًا حيواتنا. ساعةً بساعةٍ، ويومًا بيوم. نحل مشكلاتنا بهدوءٍ ونُعيد ترتيب أولويَّاتنا. المشكلة الأهم ليست السيدة بارلو، مشكلتنا الأكبر لا زالت مستلقية أمامنا.

قال جريجوري دون حماسٍ:

- لنُكمل..

كانت الشموع قد احترقت تمامًا، أشعل جريجوري غيرها، ودخلت السيدة فارلي وأغلقت الستائر، لكن جريجوري قاطعها قائلًا:

- لا داعي لغَلْقِ الستائر نهارًا. ربما نفيد ببعض ضوء الشمس الشحيح اليوم.

أومأت السيدة فارلي وقالت وهي تنظر إلى السحب الداكنة:

- ثمة عاصفة في الطريق.. هذا مؤكَّد.

أخذ جريجوري كتاب الطقوس ووقف عند رأس سوزان، وبصوتٍ خفيض بدأ القراءة، وحين وصل إلى (نجِّنا من مكائد الشيطان) فتحت سوزان عينيها.

- مكائد! وماذا تفعل الأهازيج السماوية الملائكية، وعزف القيثارات أمام المكائد؟ الطقوس هي كل ما تفلحون فيه.. جربوا الاحتفالات بالصواريخ والأضواء أفضل.

ثم ضحكت ساخرة.

بدأ جريجوري الطقس من بدايته، حتى وصل إلى عبارة (واقبض على التنين..) فصاحت الفتاة:

- لا حاجة لك بأت تُكمِل، أنا أحفظ العبارات عن ظهر قلب.. سمعتها ليلة أمس بما فيه الكفاية.. واقبض على التنين الحيَّة الذي هو إبليس والشيطان.. هل أبدو لك كتنين؟ هل أبدو لك كحيةٍ عتيقة؟ أساطير وأكاذيب كلها!

- واقبض على التنين الحيَّة الذي هو إبليس والشيطان، وقيده واطرحه في الهاوية لئلا يعود ويُضِل الأمم..

- يُضل الأمم؟ أنت لا تخشى على الأمم منِّي، أنت تخشى على نفسك منِّي!

أكمل جريجوري قراءته ولم يلتفت لما قالت. قرأ بطريقة آلية، وظلَّ يرسم علامة الصليب ما بين تلاوته للآيات حسب العلامات الموضوعة في الكتاب. ظلت قراءته تُقاطَع بالضحكات والعبارات المُتهكمة، وصوت الرعد القادم من بعيد، والمصحوب بومضات من البرق.

- بدماء الشهداء آمرك...

- لا تأمرني!

ظلَّ جريجوري يقرأ كي يصل إلى نهاية تلاوته، لكن سوزان سألت في غرور:

- ولمَ أخاف تُرهَّاتك؟

أمسكَ جريجوري بالصليب وقال:

- وهذا؟ ألا تخاف هذا؟

ودفعه إلى وجهها، صرخت:

- ابعده عني!

وحين تحدَّثَت مرة أخرى، كان بعضًا من غرورها قد كُسرَ، قالت:

- لمَ لا تأتي بأدوات تعذيب العصور الوسطى وتعذبني بها؟ أعتقد أن هذا ما ستفعله تاليًا.

أشار جريجوري بالصليب وقال:

- لا أحتاجهم، معي هذا.

- لا تقربه منه!

- لن أقربه ما لم تُجبرني على ذلك.

قالت سوزان عابسة:

- ماذا تريد أن تعرف مني؟ قلت لك اسمي.

- أجل، وسمعتك تُكذِّب ما قلته بعد ساعاتٍ من اعترافك. لكن إن كنت إبليس، أريد أن أعرف لمَ تُعذب تلك الفتاة.

- أنت مَن يُعذِّبها!

- أجبني!

- حسنًا، ولمَ عليَّ أن أجيبك؟

ثم أردفت وكأنها تكلم نفسها:

- استحوذت عليها كي أدفعها للانتحار.

- لماذا؟

- لأنها حين تقتل نفسها، ستكون روحُها ملكي، تُعذَّب في الجحيم أبدًا. ستكون روحها ملكي وملكه.

- ملكه؟

- ستُخلَّد معي في الجحيم الحالكة، ستُخلَّد معي ومعه، هو الذي لعنها.

- هو الذي لعنها؟

- هو من حضَّرني بلعنته المُخيفة. هو مَن قال لها: لتذهبي إلى الجحيم أنتِ وأبالستك، أنا ألعنك!

جذب جريجوري الكرسي، وجلس سائلًا:

- مَن قال هذا، ولأي سبب؟

قالت الفتاة في خَبث:

- لنفترض أنك أنت مَن قلت هذا.. تخيل تلك الفتاة ممدَّدة جوارك. انظر.. كم هي جميلة، غضة، شهية. تقول إنك رجل؟ تخيَّل أن يكون رجل وحيد معها، وأنت لم تكُن معها وحدكما من قبل قَطّ، لكن تخيل أن تكون معها وفي موضع سُلطة، تستطيع أن تأمرها فتنفذ، ألا تستطيع ذلك؟ ونفترض أنك قررت أن تُريها كم تحبها وكم تهتم لشأنها.. أتفهمني؟

- أفهمك.. أكملي..

- لكنها تثير حنقك، تُغضِبك.. فتفور مشاعرك نحوها حتى تصل حد الانفجار، ثم يتراءى لك أنك ستُخضعها لو استخدمت معها العنف، لكن لا.. لا يُجدي معها شيء كهذا كما ترى.

- حسنًا.. ثم؟

- لا أتحدث طبعًا عن كونك أنت من لعنتها، لكن في ذُروة انفعالك، ألن تفعلها وتلعنها وتلقي بها إلى الجحيم؟

- مَن اغتصبكِ؟ من هو؟!

- اغتصبني؟

- حسنًا، اغتصبها.. من كان؟

قالت الفتاة:

- كم أنت طمَّاع! ها أنا أجيب سؤالًا فتطمع في إجابة سؤال آخر. حتى في محاكم التفتيش كانوا أكثر رفقًا منك يا أبتاه، فقد كانوا يتركون ضحاياهم يرتاحون قليلًا.. بعد أن يعطوهم ما يُرضيهم.

كادت أعصاب جريجوري تشتعل بسبب قلة النوم والضغط النفسي، ومراوغة الفتاة المربوطة إلى السرير تُقطِّع في أعصابه. قال في محاولة جاهدة للصبر وضبط النفس:

- أجيبي على السؤال.

استمرت الفتاة في التلاعب به وقالت:

- وماذا ستفعل لو رفضت؟

انعكس ضوء الشموع على وجه جريجوري فأكسبه سمتة جحيمية وهو يهتف:

- أجيبي السؤال!

- أنت لا تعرف عمَّا تسأل..

يهدر صوت الرعد محجوبًا ببُعد المسافات، يحيط المنزل بهزيمه المظلم. أصر جريجوري على سؤاله:

- مَن حاول اغتصابها؟!

- لا ترغمني على الإجابة!

- أجِب!

- سأفعل أي شيءٍ تريده، أي شيء. اسمع.. سأدعُكَ تُمسك..

- كفاكِ!

- سيعجبك...

- من فعلها؟!

- .. لكن لن تعجبك إجابة السؤال.. صدقني، لن تعجبك أبدًا.

- لا يهمني ذلك، أخبرني من فعلها؟

- ارضَ بما عرفت.

للحظة، رأى جريجوري الثلاثة أخوات الملعونات مرة أخرى ، حين سمع إجابة سوزان، تذكر ما قله في رواية ماكبث: لا تسعَ لمعرفة المزيد..

أضاء البرق الحجرة بضوء أبيض باهت.

- بسم يسوع ومريم العذراء، أخبرني!

- ماذا لو أخبرتك أنه...

ومزق هزيم البرق العبارة إلى شطرين...

- .. الأب هالوران!

صاح الأسقف:

- كاذب!

راح المطر ينهمر على زجاج النافذة، يهزها، ويعلو صوتُه حتى يحجب أي صوت آخر.

-11-
همسات الواشي

حدَّق ملازم الشرطة فرانك بيراردي في وجه الرجل القَلِق الجالس على الناحية المقابلة من المكتب، ثم قال أخيرًا:

- تالبوت، لمَ لا تعود إلى بيتك وتطبع المزيد من ورق الدعايا؟

اتسعت عينا جون تالبوت وقال بصوتٍ هادرٍ:

- لأن زمن الكلمات قد انتهى، ووقت الفعل قد آن!

قال بيراردي:

- أنت لا تتوقع أن أصدق كل الهراء الذي تقوله، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى أنني محقق جرائم قتل، أنت تحتاج إلى الملازم كابلان من مباحث الآداب، مكتبه آخر الرواق.

- تحدثت بالفعل إلى الملازم كابلان، وقال إن كان ثمة قتلى، فعليَّ إبلاغك.

ضحك بيراردي قائلًا:

- هذا ما يفعله كابلان؛ إلقاء العمل على غيره!

قال تالبوت في محاولة لإنشاء حوار من نوعية (هذا أمر بين المسيحيين) وقال:

- كابلان ومن مثله دواهٍ.

لكن بيراردي قال ببرودٍ:

- ومن مثله؟ لا أعتقد أنَّ أحدًا في هذا الكون يعجبك يا تالبوت.

جفت شفتي تالبوت وصارتا خطين أبيضين وهو يقول:

- أعرف أنكم فقط مهتمون بحماية أمثالهم من الكاثوليك..

- اسمع، أنا ألقيت القبض على كاثوليك وشهدت ضدهم، وزججت بهم في غُرف الإعدام.

- بالطبع فعلت، من أجل صورتكم تقبضون على الكاثوليك البسطاء، لكنك لن تقبض أبدًا على كاهن.

قالها تالبوت في انتصار، فأجاب بيراردي بهدوءٍ:

- كلا، لكن بما أنك قد ذكرتَ الأمر، فأنا لم ألقِ القبض على قِسٍّ كاثوليكي أو كاهن بروتستانتي. يبدو أن رجال الدين بارعون في إخفاء جرائمهم. دائمًا ما يخدعونني في كل مرة.

قال تالبوت:

- اسخر مني كما تشاء. لكن حين ينكشف الغطاء عن مَسكن القساوسة ويفشي سر وكر الدعارة فيه، لن تتجاهلوا وقتها الفتيات المُعذّبات المُجبَرات على ممارسة البغي، وحفلات الجنس الجماعي، و...

- و...؟

- سيعرفون وقتها أنك كنت تعرف كلَّ هذا ورفضت تقَصِّي الحقيقة خلفه، لأنك مجرد موظف لدى الفاتيكان، تتملقه و...

انحنى بيراردي على مكتبه وقال:

- أحذرك يا تالبوت، لقد تلقَّيْنَا عشرات الشكاوى ضدك، وفحصنا الهراء الذي تطبعه وتوزعه، وتركناك كل تلك الفترة تحت شعار حرية الرأي. كل تلك المنشورات عن الفاتيكان والمؤامرة الكاثوليكية العالمية لا تهمنا، لكن من الأفضل أن تحذر لخطواتك..

- أنت تُهدِّدني يا بيراردي؟

- أنا أنصحك. احذر لخطواتك، لا تتعدَّ حدودك وتكسر القانون.

قام تالبوت هاتفًا:

- أنت ترفض أن تتخذ خطوةً تجاه ما أبلغ عنه؟

- أنت لمَّاح!

- هذا مُتوقَّع، فحين تجتمع قوى القمع والاستبداد كي يحموا بعضهم البعض...

- إلهي!

- ...فعلى الناس أن يهتموا بشؤونهم بأنفسهم.

قام بيراردي واقفًا بغتة وقال:

- بأنفسهم؟! دَعني أخبرك بشيءٍ أيها الأخرق، سأُراقبك كالصقر، على مدار اليوم. سيتبعك رجالي أيما ذهبت. أيُّ منشور توزعه يَنالُ من سمعة أي شخص، ستجد نفسك في السجن.

وسار نحو تالبوت، وقال هامسًا كأنما يتآمر:

- أتعرف لماذا؟ لأنني متعصب.. مُتعصبٌ ضدَّ أي شيء يفوح برائحة نتنة، وأنت نتن الرائحة يا تالبوت. عقلك مُفعَمٌ بالديدان القذرة كصفيحة قمامة.. اصنع لي معروفًا وارحل من هنا قبل أن أفرغ معدتي على الأرض.

ارتمى بيراردي على كرسيه الدوار مُردفًا في سخرية ودهشة:

- جنسٌ جماعي في مَسكن قساوسة الملاك ميخائيل؟! إلهي!

خرج تالبوت من قسم الشرطة إلى الطريق المطير، تغرق الأمطار ملابسه، تصم السماء أذنيه وتعمي نظره برعدها وبرقِها. حي وصل إلى مطبعته، فتح بابها بمفتاحه ودلف إلى الداخل. نزع عن نفسه ملابسه المُبتلة وتوجَّه إلى الحجرة الخلفية التي هي منزله.

كانت الحوائط عاريةً من أي نوع من اللوحات أو الصور أو التقويمات. الأثاث مجرد فراش بسيط، وكرسي مُتداعٍ، ومقعد مطبخٍ خشبيٍّ وحيدٍ، وطاولة عتيقة عليها سخَّان كهربي فوقه إبريق شاي من الخزف. وضع القهوة في الإبريق ووضعها على السخان، ثم عاد إلى المطبعة يبحث وسط دُرج ملفات معدني. في الدرج كانت نُسَخ من أعماله، كتيبات صغيرة من أربع صفحات، بعضُها أكبر، بعضُها مُلوَّن. اختار نسخة عن الأعمال التعذيبية الكاثوليكية، وقرأها سريعًا فتفتَّحت صفحاتها كبتلات زهرة سامة في عقله.

ثم بدأ في طباعة نسخ منها بعد إجراء تعديلات عليها. على خلفية من رائحة القهوة قرأ فيها:

«معروف لكل المؤرخين الذين لا يشتري الفاتيكان صمتهم، أن الرهبان رغم أخذهم عهود التبتُّل إلا أنه كانوا متعددي العلاقات النسائية. وعندما لا تنصاع النساء لرغباتهم، يهددوهن بغضب الرب. كذلك فرجال الدين من الكاثوليك لا يختلفون كثيرًا عن معذِّبي محاكم التفتيش الإسبانية، مثل المحقق توركيمادا الذي عيَّنه البابا إنوسينت عام ١٤٨٧، والذي استخدم المخالع وآلات التعذيب لكسر إرادة العديد من النساء. هذه حقيقة تاريخية معروفة ومُثبَتة.

المهم أكثر هي الممارسات الجنسية الكهنوتية التي تتم حاليًا. ناشر هذا الكتيب قد تعرَّض للتهديد بالحبس بتهمة تشوية السمعة الشخصية، أو التحريض على الشغب، لذلك لم يتم ذِكر أسماء هنا.

لكن هل تساءل أحدٌ منكم عن سر الأصوات الغريبة الصادرة من منازل القساوسة، في الساعات الأخيرة من الليل؟ هل سمعتم صراخ فتيات يتعذبن؟ هل تجهالتم هذه الأصوات؟ لن أذكر أسماء إبرشيات معينة وفقًا للقانون، لكن...»

سكب تالبوت ما تبقى من قهوة في حلقه، وأدرك أنه لن يستطيع نشر تلك الكتيبات قبل أن يجف الحبر. عاد إلى واجهة متجره، وفكَّر في وجوب تعديل حجم كلمة (جنس) في عنوان الكتيب، مع اختيار فونط كتابة بطراز العصور الوسطى.

***

قالت السيدة بارلو عبر الهاتف:

- مخمورًا؟ كلا، لم أشم رائحة خمر صادرة منه يا عزيزتي. عمومًا كان يتحاشى التنفس قرب وجهي!... بمَ إذًا تفسرين تصرفاته؟ كان غير حليق! ويطلب مني أن أهتم بشؤوني الخاصة..حسنًا، فقبل كل شيء... تذكَّر ما علمناه عما حدث في إبرشية القديس فرانسيس... أجل... بالطبع... أنا عازمة تمامًا على ذلك، أنتِ تعرفين أن هذا ليس كل شيء. لا أعرف كيف أحكي، فهو أمرٌ مُحرجٌ للغاية، لكنها في الغالب فتاة

سوء، تتفوه بأفظع الكلمات.. لا أستطيع تكرار ما قالته... حسنًا يا عزيزتي، الصورة العامة بغيضة للغاية...

***

لم ينجُ الأب هالوران من تقلُّب الطقس رغم انتقاله إلى دار أيتام الملاك الحارس. كانت المسافة بينه وبين إبرشية الملاك ميخائيل لا تتجاوز سفر ليلة بالسيارة، لكن الطقس الغريب كان يغطي المنطقتين.

في أول لحظات شغله لمنصبه الجديد، انشغل على الفور، فقد كانت المهام تتراكم منذ وفاة مدير الدار السابق، ودُفِع الأب هالوران للخوض وسط الأوراق والإجراءات المُعلقة. لم يبق له إلا القليل من الوقت للاشتياق إلى إبرشيته القديمة، ولتأنيب ذاته بخصوص حالة سوزان جارث.

كان ثمة فتيات في مثل عمرها وجمالها في دار الأيتام التي يتولاها، وقد قضى وقتًا مع بعضهن، وقد ذكرنه بسوزان. لكن في ساعات عمله النهارية، يتراجع عنه مَد التفكير في سوزان والشائعات حولهما والذنب العظيم.

وفي أضغاث أحلامه المُظلمة القلقة، تصحبه سوزان، أحيانًا عارية وأحيانًا مستورة. أحيانًا ما كانت تتكلم، وغالبًا ما يسود صمتها، تنظر إليه بعينين مُتهمتين. في مرة أو مرتين رآها قتيلة، جثتها الشاحبة مُلقاة على ضفاف الموت.

لكن لماذا؟ ظل يردد السؤال مراتٍ ومراتٍ. لماذا تلومه وماذا كان التصرف الأمثل الذي لم ينتهجه؟

لكن الفتاة ظلت تزور أحلامه كل ليلة، تتهمة، تُعذبه بصمتها، ولم يقدر على الفرار منها إلا كما عجز عن الفرار من قيظ حرارة الجو.

كل هذا دار في عقل الأب هالوران خلال صبيحة يوم الأحد، وهو يرتدي ملابسه الرسمية بعد ليلة ليلاء. مسح وجهه بمنديله وارتدى معطفه الأسود، وراح يقلِّب في جيوبه. انغلقت أنامله حولَ شيءٍ صغيرٍ، شيء أرسله إلى ذكرى مُريعة.

***

أشعل بروس جلينكانون لفافة تبغ للملازم فرانك بيراردي، ثم أشعل واحدة لنفسه وراح ينفخ دخانها في جدية، ونظره مثبَّت على الطرف الملتهب من اللفافة. أطفأ عود الثقاب في المطفأة الرخامية جواره، وتراجع في كُرسيه ثم قال:

- لطيف منك أن تمُر عليَّ يا فرانك.

أجاب بيراردي من بين سُحُب الدخان:

- حين اتصلت بي وأعربت عن قلقك حيال أمرٍ يخص القسم الذي أعمل به، قررت أن آتي لأتقصى الموضوع.

أومأ جلينكانون وقال:

- فرانك، أنت تعرفني، فأنا رجل أعمالٍ، وأعمل استنادًا إلى الحقائق فقط؛ الأرقام، المبيعات، وهكذا. أقيِّم المعطيات في عقلي جيدًا قبل أن أستنتج منها شيئًا. أعتقد أنك تعمل بذات النمط.

- أجل يا سيدي، أظنني كذلك.

- لا يصفني أحدٌ أبدًا بسعة الخيال، ولو أن أحدًا زعم لي أن القمر مصنوعٌ من الجبن الأخضر، سأضحك. ومهما تكرر ذلك الزعم سأراه مُضحكًا. لكن إن جاءني عالمٌ وقال إنهم التقطوا صورة للقمر بلون أخضر، وقتها سأفكر في مدى صدق هذه المعلومة، وسأبحث عن مصدر آخر لها، عالِم آخر استطاع أن يصور القمر من صاروخ مثلًا وحصل على ذات الصورة، أو عالم أثبت أن القمر مُؤلَّفٌ من البروتين. بعدها سأعود وأؤمن أن أول من أبلغاني لم يكونا بهذا الحمق.

أومأ بيراردي ولم يُعلِّق.

- فرانك.. أنا كاثوليكي مثلك، نرتاد ذات الكنيسة. لستُ قديسًا ولا أعتقد أنك تزعم القداسة، لكنني أعتقد أنني شخص مُتديِّن، ربما أكثر من بعض الآخرين. لا أحب أن يتحدث أحدٌ بسوء أو استهزاء عن الكنيسة، وسأنسحب من أي حديث يتطرق إلى نكات عن الراهبات والقساوسة أو الباباوات. أتبرع للكنيسة كل عامٍ بمبلغٍ مُعتبر..

صمت جلينكانون هنيهة وراح يسحب الدخان من سيجارته، ثم أردف:

- لذا، إن جاءني شخص وزعمَ أن كاهن من إبرشيتي يعاشر النساء في مَسكن القساوسة، سأطرده فورًا ولن أستمع لهراء كهذا.

شعر بيراردي بتوترٍ مُتزايد خلال الديباجة التي ألقاها مُضيفه، لكنه شعر براحةٍ الآن وقال باسمًا:

- الآن أفهم.. جون تالبوت..

- ليس هو..

- ليس هو؟

- هذه هي النقطة التي أحاول توضيحها حين تحدثت عن القمر المكوَّن من الجبن الأخضر. لم أكن لأستمع لرجلٍ مثل تالبوت، ولم أكن لأصدقه. لكن ما قاله تالبوت قالته ليديا بارلو، ومايك شاندلر وعدد من عائلة دانهام المُنتمون لإبرشية مُختلفة. هنا بدأت ألاحظ وأُفنِّد، وعليك أن تحذو حذوي.

- أحذو حذوك بأي شأن يا سيد جلينكانون؟

- تقصَّ الحقائق يا فرانك. ما يقولون عن حفلات ماجنة حتى ساعات الصباح الباكر، ضحكات خليعة، أصوات زجاجات تُكسَر، صراخ..

- والآن..

-اسمعني جيدًا، فقد وصلتِ المعلومات من عائلة شاندلر، وهم أكثر تديُّنًا منِّي، ووصلتني معلوماتٌ من السيدة بارلو نقلًا عن عائلة دانهام، فحواها أن الراهب الجديد طُردَ من إبرشيته لأنه سِكِّير، وأدى مناسك كنسية وهو في حالة غياب عقل. وهذا لم يكن كل شيء، ليديا بارلو كانت في مَسكن القساوسة صباحًا وتحدثت مع الرجل، قالت إنه كان في حالة مزرية، وحدَّثها بحدَّة وطردها. سمعت ليديا صوت امرأة أثناء زيارتها، سمعت ضحكات وكلمات مُشينة وكأن قائلتها عاهرة. ما قولك بهذا الشأن يا فرانك؟

قضب بيراردي جبينه وقال:

- لا أعرف.. يبدو الأمر مُقلقًا، غريبًا.. لكن يا سيد جلينكانون، الراهب..

- أنا وأنت لسنا أطفالًا. الرهبان رجال من دم ولحم كأي رجالٍ آخرين. أحيانًا ما تنتابهم الرغبات، وأحيانًا ما يفقدون السيطرة عليها. الرهبان قد يفقدون عقلهم كذلك، وقتها يمكنهم فعل أي شيء، فما بالك براهبٍ سِكير؟ أرأيت هذا؟

أخرج جلينكنون مجلةً من دُرج مكتبه وناولها لبيراردي وقال:

- الرجل كتب مقالًا عن عقاقير الهلوسة، وكيف أن الجنس والدين شيء واحد.. ألقِ نظرة.

- حسنًا، هذا لا يعني...

- قرينة مُنفردة لا تعني شيئًا، لكن ضُم كل تلك المعلومات إلى بعضها البعض وسترى الصورة كاملة. الحديث عن عقاقير الهلوسة والخمور، والمرأة في منزله، كيف تتجاهل كل هذا؟

وأد بيراردي سيجارته في المطفأة وقال:

- سيد جلينكانون، لو كان ما تزعمونه حقيقةً، فيجب على السُّلطات الكنسية التحقيق في الأمر، ولا دخل للشرطة في الموضوع؛ خاصة قسم جرائم القتل.

- وكيف تعرف؟

- أعرف ماذا؟

- كيف تعرف أن الأمر لن يصل إلى القتل؟ لمَ لا تكون تلك الصرخات صرخات شخص يُعذَّب؟

- سيد جلينكانون، راهب سكير، أو حتى فاسق يختلف عن قاتل. كيف يمكن أن يصل به الأمر إلى القتل؟!

- لا أعرف، لكن ثمة رهبان انقلبوا إلى مجرمين، منهم من صنع مذابح كنسية بلحم النساء، رهبان يتلون الصلوات مقلوبة ويقدمون الأضحيات للشيطان.

- أظنك تبالغ بشدة يا سيد جلينكانون.

- أنا لا أبالغ! لا أختلق شيئًا من كل هذا. أعترف أن كتيبات تالبوت هي من زَرعَت الشك في نفسي، لكني بحثت بنفسي وسألت. تلك الانحرافات حقيقة موثقة منذ مئات السنين، حقيقة مُسماة... أتود أن تعرف اسمها؟

ترك بيراردي جلينكانون يخبره..

- اسمها القداس الأسود.

وفُتح منفذٌ للشك في درع يقين بيراردي..

-12-
قطعُ الألسنة

قال جريجوري للأسقف وهو واقفٌ في الردهة أمام الحجرة المُقيَّدة بداخلها سوزان:

- كلُّ هذا كذب. أعرف أنه لم يكن الأب هالوران.

- ولَم أنت متأكد؟

- سمِّه حدس.

-لا يمكنني التسليم بالحدس يا جريجوري، مهما كنت أريد تصديقه. أنت نفسك تُشكِّك في وجود الشيطان ذاته وتستند إلى حدسك.

- وأنت نفسك نعتَّها بالكاذبة.

صحَّح الأسقف لجريجوري قائلًا:

- نعتَّه هو.. هو. عمومًا ما قلته كان مجرد رد فعل لم أقصده.

أصر جريجوري قائلًا:

- لكن زعمها مستحيل!

هز الأسقف رأسه وقال:

- مستحيل؟ بالطبع لا. ربما يكون ما قيل صادمًا، أو عصي التصديق. لو كان هذا صحيحًا فانظر ما يمكن أن يفعله رجل كهذا مع أيتام!

تنهَّد جريجوري قائلًا:

- نيافتك.. دعني أفترض للحظة أننا كنا نتحدث مع إبليس..

- لتفترض كما تشاء..

- هل تثق بشيءٍ يقوله أبو الأكاذيب؟ هل تصدقه؟!

- كلا. ليس بالضرورة أن أصدقه أو أكذبه. هذه هي خطورة حيله، أن ينسج الحقائق مع الأكاذيب حتى لا نستطيع تبيُّن الصدق من الكذب.

- إذًا ربما يكون ما قاله مجرد خدعة، ربما لم تكن ثمة محاولة لاغتصابها من الأساس. لقد كانت تلقي بالتهم يمنةً ويسرة. تذكَّر ما قالته عن علاقتي بالسيدة فارلي وبأن السيد جارث قد قتل زوجته، تذكَّر ما قالته عنك..

- لديك حق. لنعد إلى الداخل ونرى إن كان في وسعنا تبيُّن الحقيقة.

- بكل سرور.

* * *

كانت عينا سوزان مفتوحتين، لنكها كانت أكثر هدوءًا، وكانت السيدة فارلي جالسة في ركن الحجرة. جلس جريجوري جوار الفراش المقيدة إليه الفتاة وقال:

- أخبريني بالمزيد عن الأب هالوران.

- ألم يكن ما قلته كافيًا؟ لم يكن بالفظاعة الكافية التي تُشبع فضولك؟

- أريد أن أعرف المزيد من التفصيل عن الوقت والمكان..

- ولمَ تهتم بتوافهٍ كهذه؟

- ليس شأنك.

قالت في مرح مفاجئ:

- أنا أخبرك عن السبب. اهتمامك لا ينبع من المنطق أوالكهنوت، اهتمامك شهوانيٌّ بَحْت! تريد معرفة التفاصيل التي تُسيل لعابك، أليس كذلك؟

تجاهَل جريجوري ما قالته وسألها:

- متى وأين قام الأب هالوان بمحاولاته التي ذكرتَها؟

ولَّت وجهَها شطر الحائط وقالت:

- قلت لك ما يكفي.

- أين ومتى؟!

- بالأسفل.

- في أي حجرة؟

- في المكتب.

- متى؟

- أوه.. منذ زمن..

- متى؟!

حاولت الحركة لكن القيد منعها، قالت:

- منذ ستة أشهر على الأقل.. لا أذكر.

- لا تذكر؟ ألا يعلم الشيطان كل شيء؟ هذه طبيعته.

- هذه مُغالطة..

أنصت الأسقف بتركيز أكبر وجريجوري حاورها:

- مغالطة؟

- ثمة ما لا يسعني معرفته؛ الأفعال التي تم الاعتراف بها للكهنة.

كان هذا اعتقادًا سائدًا بين الأوساط الكاثوليكية، مجرد أسطورة لا سند لها في اللاهوت. كانت الأسطورة تقول إن الشيطان يعرف كل ما فعله البشر، باستثناء الخطايا التي يُعترَف بها للقساوسة. لكن هذا يُناقض المعروف في اللاهوت من كون الشياطين تعرف أفعال البشر، لكنها لا تطلع على نواياهم. سألها جريجوري:

- وكيف عرفتَ بشأن نوايا الأب هالوران تجاه الفتاة؟

- هو لم يعترف بها قَطّ، كان يشعر بالخزي منها.

- راهب يخجل من الاعتراف؟ منطِقُك بدأ يخونك. وماذا عن سوزان، ألم تعترف؟

ضحك الكيان المقيد إلى الفراش وقال:

- هي؟ تعترف؟ كيف وهي لا تستطيع حتى ولوج الكنيسة؟ منطقك بدأ يخونك أيها الأب سارجِنت، بالضبط كما خانك إيمانك، وكما خانتك إبرشيتك..

راح جريجوري يرتجف غضبًا، وهتف:

- كذاب! كل ما تقوله عن الأب هالوران كذب، وكل كلمة تتفوه بها افتراء. أنتِ مجرد فتاة مجنونة مُختلة.. اعترفي!

لكنَّ سوزان لم تتكلم. أردف صارخًا وهو يصفعها:

- اعترفي!

هتف الأسقف في صدمة:

- جريجوري!

ظلَّ جريجري يصفعها ويأمرها بالاعتراف..

- اعترفي أيتها القذرة!

- جريجوري، توقف!

عدا صوت الرعد، لم يكن ثمة صوتٍ آخر في الحجرة. بدا المكان كصورةٍ مُتجمدة بلا صوتٍ أو حركة.

ثم عاد الصوت بنحيب جريجوري، جسده يرتجف، وسرعان ما انحنى على نفسه وتهاوى أرضًا، وتصاعد صوت بكائه. وقف الأسقف جواره بلا حيلة، يتفوَّه بعبارات مواساة مبتورة.

من خلال عَبَراته قال جريجوري بصوتٍ واهنٍ:

- إلهي، لماذا أنا؟ لمَ يحدث لي كل هذا؟ ماذا فعلت من خطايا لا تُغتفر؟ ماذا جنيت؟!

- جريجوري.. بُني..

- أكل هذا لأنني شككت؟ أهذا كل شيء؟ رجال آخرون لديهم شكوك.. تلامذة المسيح، رسله، قديسوه! هل الشك جريمة؟ هل العقل خطيئة؟!

هوى الأسقف على ركبتيه جوار الكاهن الباكي، ودعا:

- إلهي، ساعد هذا المسكين، هذا الورع.. واكشف له برحمتك حكمتك كما كشفتها لتوما الرسول. طمئِن قلب جريجوري وضُمه إلى زُمرة من ترحم.

تراجع صوت بكاء جريجوري، وتعالى نحيب السيدة فارلي. رسم الأسقف الصليب على صدره، وقام جريجوري واقفًا وهو يقول مكسورًا:

- كفى كذبًا.. كفى حديثًا مواربًا له ألف معنى..

ونظر إلى عيني سوزان بعينيه الحمراوين المتورمتين:

- أنت! أيًّا من تكون، سواء كنت الفتاة أو الشيطان، اسمعني.. لن أقبل منك أكاذيب أكثر، أتفهمني؟ سأنتزع منك الحقيقة لأنني آمرك.. آمرك بحق سلطة خادم الرب..

قالت السيدة فارلي:

- اسمع!

توقف جرجوري في منتصف عبارته وقال:

- ماذا؟

فتحت السيدة فارلي باب الحجرة، وقالت:

- يبدو أن أحدًا يقرع باب المنزل..

قال الأسقف:

- دعيهم..

- هم يقرعون بقوة، ولا يبدو أنهم سيتوقفون.

- لا تهتمي.. أكمل يا جريجوري.

- بسم يسوع المسيح آمرك أن تقول الحقيقة الكاملة.

واستمر صوت الطرقات.. سأل جريجوري:

- هل حاول أحد اغتصاب سوزان؟ قُل الحقيقة.

قالت الفتاة المُقيدة:

- أجل.

- أكان هذا الشخص هو الأب هالوران؟

- قلت لك سابقًا...

- قلت سابقًا: ماذا لو قلت لك إنه الأب هالوران؟ الآن أطالبك بالحقيقة المُباشرة.

صاحت الفتاة:

- أحمق.. كيف ستعرف الحق من الباطل؟!

- قُلْ الحقيقة!

- وكيف تعرف أنني لم أخبرك بالحقيقة؟

تزايدت الطرقات على الباب، ولم يَبْدُ أن الطارق سيستسلم قريبًا. رفعَ جريجوري الصليب عاليًا وقال:

- أخبرني اسم الرجل الذي حاول اغتصابها.

صاحت الفتاة:

- لن أخبرك!

- أخبرني!

- كلا!

- ما اسمه؟

قالت الفتاة من بين أسنانها المُطبَقة:

- لم لا تصدق أنه الأب هالوران؟!

- لأنك لم تبرهن على أنه هو مَن فعلها.

- برهنت!

- كلا!

- برهنت! هذه هي الطريقة التي أتحدث بها كي أتفادى الألم.. لا ترغمني على تكرار ما قلت، أنت لا تعرف ما سيحدث لي..

- لا يهمني ما سيحدث لك، لا يهمني إن كانوا سيشقُّونَكَ نصفين! أخبرني، أكان هو الأب هالوران؟

كان وجهها مُتصدعًا ملتويًا كأن يدًا خفية تتلاعب به، قالت:

- لو قلت لك الحقيقة، ستصدقني؟!

كان الوضعُ مُحيِّرًا، أيصدق الفتاة المُعذَّبة أم يكذب أبو الأكاذيب؟ ولمَ يصدق شهادتها بهذا الشأن ويُكذِّب باقي ما قالته؟

صارت الطَّرقَات على الباب أقوى وأعنف. سألته الفتاة وكأن سؤالها يُمزق أمعاءها:

- أستصدقني؟

أراد جريجوري أن يوقف عذابها، فقال:

- أجل.. أكان هو الأب هالوران؟ تكلَّم!

انفتحت عيني الفتاة كأنما في عذابٍ رهيبٍ، وترددت صرخة ألمها في أرجاء المنزل، ورأى جريجوري في ذعر أسنان الفتاة تُطبق على لسانها، وتخترق اللحم الأحمر..

قال جريجوري في رفق:

- بسم مريم العذراء، تكلم..

ببطءٍ، خرجت الأسنان من اللسان المجروح، وراحت الدماء تسيل من ركن فم الفتاة، وخرجت الكلمات ببطء منها على خلفية من الطَّرقات المجنونة:

- هذه هي.. الحقيقة.. كان هو.. هو من كان يقرع..

- ماذا؟

- هو من يقرع بابك، هو من تريد معرفه اسمه..

وكانت هذه هي آخر كلماتها قبل أن تغيب عن الوعي.

-13-
هو من يقرع الباب

لم تخفت الطرقات على الباب، بل تحوَّلت إلى ما يُشبه طبول الحرب، يتردد صداها بجنون داخل حوائط المنزل. وقف جريجوري مذهولًا، نصف وعيه مع الفتاة المُضرجة في دمائها، والنصف الآخر ينتبه تدريجيًّا إلى الطَّرقات المتعالية.

قال بصوت جهوري:

- انظري مَن الطارق يا سيدة فارلي.

قال الأسقف:

- انتظر، أظنُّ من الأفضل أن تفتح الباب بنفسك.

- أجل، لديك حق.

خرج من الحجرة وسار نحو الباب، وسمع الصوت يتعالى أكثر كلما اقترب منه. من يجرؤ على قرع باب مسكنُ القساوسة بهذا الشكل؟ مَن يطالب بالدخول هكذا؟ سمع الطارق يهتف بنبرة آمرة:

- دعني أدخل، افتح الباب!

الهيستيرية في صوت الطارق تمنع جريجوري من التعرُّف عليه. لكنه ليس الأب هالوران.. الأب هالوران على بُعد أميالٍ، ولا يمكن أن يكون هو مَن...

فتح جريجوري قفل الباب الكبير، فتوقفت الطَّرقات، وصار المنزل في صمت القبور إلا من صوت المطر. همس جريجوري لنفسه:

- يا إلهي، أدعوك ألا يكون الطارق هو الأب هالوران..

فتح الباب، ليجد روبرت جارث غارقًا في المطر يهتف:

- وصلت في وقتي! ابتعد عن طريقي.

دفع جارث جريجوري وانطلق إلى حجرة المعيشة، فأغلق جريجوري الباب خلفه. راح جارث يجيل نظره حوله وهو يردِّد:

- أين هي؟!

- في الأعلى، وبخير. اسمعني..

- سأسمعك بعد أن تفسر لي هذا..

وأخرج من معطفه كتيب مُبللًا ناوله لجريجوري. الورق صار مهترئًا من البلل، وتبقَّع الحبر وصار عسير القراءة، لكنه استطاع تبيُّن عبارة (طقوس الجنس

الكاثوليكي)، وعبارات متناثرة أخرى مثل (أصوات مريبة في مساكن القساوسة) و (صرخات فتيات معذبات..)

رفع جريجوري عينيه عن الكتيب وقال:

- أعمال جون تالبوت معروفة لديَّ، وقد حذَّرني الأب هالوران منه. لا يوجد جديد.

- لا يوجد جديد؟! هذا الكتيب وُضِعَ تحت بابي صباحًا بينما حبرُه لم يجف بَعدُ، هذا المنشور تمت طباعته حديثًا ولا يتحدَّث عن أمورٍ حدثَتْ في الماضي. ثَمَّة ما يحدث الآن ودفعه لطباعة هذه المنشورات. عن أي منزل قساوسة يتحدث يا أبتاه؟ أيُّ منزل قساوسة يعرفه تالبوت غير هذا؟ ومَن الفتاة المسكينة التي تصرخ وتُعذَّب؟ سوزي، أليس كذلك؟!

صاح جريجوري:

- بحق الله! أنت كاثولوكي ومع ذلك تصدِّق تُرهَّات تالبوت؟

أجاب جارث في مرارة:

- كاثوليكي.. أجل أنا كاثوليكي ولا يَدَ لي في هذا، وُلدتُ ورُبيت ككاثوليكي حتى صارت الكاثوليكية في دمي. عندما توفيت زوجتي..

قال جريجوري في رفقٍ:

- ماذا يا سيد جارث؟

- ..اقتلعت الصليب من على حائط حجرة نومي. لا أعرف السبب لكنني فعلتها. غريبٌ أنني لا زلت أذهب للقداس كلَّ أحدٍ. أذهب للقداس في اعتياد ذهابي للحمَّام، ولا يسعني فعل شيء سوى هذا. أنا كاثولكي، ولا يهم إن كنت مؤمنًا بما أنا عليه.

قال جريجوري في تفهُّم:

- هل اعترفت بشعورك هذا من قبل؟ أتريد أن تعترف؟

ضحكَ جارث في مرارة وهتف:

- أعترف؟ وبماذا سيفيدني الاعتراف؟ عليك أن تسمع ما يقوله تالبوت عن الاعتراف الكنسي.

- أعرف ما...

- اسمع، هذا الرجل تالبوت ربما ليس بالحمق الذي تظنه، أنا أتحدث إليه من وقتٍ لآخر منذ أعوام. كان يريد أن... يثنيني عن المسيحية. في البداية كنت أسخر منه.. لكن الآن.. لا أعرف.. الرجل أذكى منِّي بمراحل.. هو مُتعلِّم، وقرأ العديد من الكتب، ولديه آراء لامعة. أتعرف ما يقول عن يسوع؟

أجاب جريجوري في صبرٍ:

- أعرف. يقول إنه مجرد يهودي مُختل، صلبوه على قطعة خشب فصار إلهًا. إلهًا يهوديًّا مُختلًا يعمي أعيننا بكلماته منذ ألفيّ سنة.

- هذا ما يقوله، وعندما تتوقف عن التفكير في سخافة ما يقول، تجده مقنعًا. هؤلاء اليهود..

- ليغفر لك الرب.

- لا أريد غفرانًا من أي أحد، كل ما أبغاه هو أن تأخذني إلى سوزي.

- لماذا؟

- لماذا؟ أنا أبوها!

أبوها، هو من تريد معرفة اسمه كما قالت سوزان. أيمكن تصديق هذا؟ أيهما أعسر على التصديق، أن يكون الأب هالوران هو مَن فعلها، أم جارث؟ أبو الفتاة الروحي أم الشرعي؟

اتجه جريجوري إلى الدرجات المؤدية إلى الطابق العلوي وهو يقول:

- اتبعني.

- لو أن أيَّ ضَررٍ لحق بها، لو كنت آذيتها بأي طريقة..

وصلا باب الحجرة، وعرف جريجوري رد فعل جارث حين يرى ابنته بغير ملابسها، مربوطة إلى فراش، والدم يسيل من بين شفتيها.

بحزم، فتح الباب.

صُعق الأسقف والسيدة فارلي لدى مرآهم جارث. قال الأول برفق:

- أكنت أنت من يطرق على الباب؟

- أجل أنا.

ونظر خلف الأسقف إلى سوزان، وبصرخة غضب اندفع إليها هاتفًا:

- طفلتي! ماذا تفعلون بها؟!

ولم تكن ثمة إجابة.

- حبيبتي، أتسمعينني؟ أنا هنا.. أبوكِ..

وبحنق التفت إلى الكاهن:

- ماذا يحدث هنا؟! ماذا فعلتم بها؟!

قال جريجوري:

- سيد جارث...

- أخدَّرتموها أو شيء من هذا القبيل؟!

قال الأسقف بلهجة واثقة:

- لم نُخدر سوزان، ولم تتعاطَ حتى الإسبرين.

- إذًا ماذا بها بحق الجحيم؟ لماذا...

- من فضلك، تذكَّر أنك في منزل قساوسة، انتقي ألفاظك.

- لا تحدثني بهذا الهراء، تالبوت كان على حق وكنت مُحقًّا حين أنصتُّ إليه. أنتم القساوسة لا تساوون...

لكنه لم يُكمِل ما كان يريد قوله، فقال مُحمر الوجه:

- فسِّرا لي ما حدث!

قال الأسقف في برودٍ:

- سنفسر.. لكننا لسنا الوحيدين المُطالبين بالتفسير هنا.

- ماذا تعني؟

- لا شيء تحديدًا.. أتطرق الأبواب بهذا القوة عادة؟ تبدو مُرهقًا. لمَ لا تهبط إلى الردهة وترتاح قليلًا بينما...

- لن أتحرَّك دون سوزان.

قال جريجوري:

- يمكننا التحدُّث بهذا الشأن بعد أن أتناقش مع نيافته. ائذِن لنا يا سيد جارث، سأخرج مع الأسقف لدقائق.

* * *

في الردهة خارج الحجرة، همس جريجوري:

- ماذا سنفعل؟ أنخبره؟

- نخبره بماذا؟

- عمَّا نفعله بالطبع.

- أتظنه لا يعرف؟

- كيف يعرف؟

- ربما بنفس الطريقة التي عرفَ بها الشيء المربوط إلى الفراش من يطرق الباب. ثَمَّة رابطٌ دائمًا بين الشيطان ومَن يملك زمامهم.

- الفتاة لم تذكر اسمًا، أي شخص في مكانها قد يقول ما قالت.. لا معنى لاتهامها.

- هذا الحديث لا يقودنا إلى أي مكان. أنت تسألني عما يجب علينا فعله، وأنا أنصح بالتخلص منه.

- حتى التخلص منه يحتاج إلى خطة. الرجل عنيد، وربما يفكر الآن فيما عسانا نخطط له. حين نعود، سأفعل ما قد ينهي هذا الموقف، فقط جاريني.

- كما تقول.

***

داخل الحجرة، واجههم جارث فورًا:

- حسنًا، أخبِراني الآن بما تفعلانه. ثمة ما يُقال عن ما يحدث هنا، وعن الأصوات الغريبة المُستمرة ليلًا نهارًا، وعن الناس الذين طردتوهم حين جاءوكم.

والآن آتي إليكم لأجد ابنتي التي زعمتم أنكم ستساعدونها مُقيدة والدماء تغرق وجهها! إن لم تتحدثا إليَّ سأتحدث أنا إلى الصحف والشرطة، وسأشق هذا المكان إلى نصفين وأخبر العالم عن القذارة التي وجدتها فيه! أخبراني بما يحدث هنا!

قال جريجوري:

- حسنًا، لكني أتساءل إن كان هناك ما تخبرنا به أولًا.

ضاقت عينا جارث وقال:

- هذه ثاني مرة تُلمح فيها أن هناك ما تريدني أن أخبرك إياه. عن أي شيء تتحدث؟

- أتحدث عنك وعن سوزان، عنك وعن زوجتك المتوفاة.. عمَّا حدث يوم وفاة زوجتك منذ ستة أعوام. كيف ماتت ولماذا؟

- لا أعرف عمَّا تتحدث، وأنت نفسك لا تعرف.

- بربك يا سيد جارث! لنعود إلى ذلك اليوم منذ ست سنوات، ولتحكِ لي أنت، فأنا لا أعرف شيئًا كما تقول. أنت كنت معها يوم وفاتها؟

- بالتأكيد كنت معها.

- لتحكِ لنا ما حدث إذَا.

- أحكي لكم؟ هل أنا في محاكمة؟!

- كلا.. ليس بعد.

- هل تحاول اتهامي بجريمة؟ ماذا تنوي بالضبط؟!

صاح جريجوري:

- كفاكَ مُراوغة! يكفي أنني لم أتصل بالشرطة قبل أن أسمع منك ما حدث.

علا صوت جارث المبحوح في غضبٍ عارمٍ:

- الشرطة؟ تسمع مني؟ ماذا يحدث؟!

- ثمة هاتف في الردهة بالأسفل، هل أتصل بالشرطة الآن؟

- أتصل بهم! أنت جننت!

فتح جريجوري باب الحجرة وهمَّ بالخروج، لكن جارث هتفَ:

- انتظر..

تنهد جريجوري في راحة، وأردف جارث:

- ماذا تريد أن تعرف؟

أغلَق جريجوري الباب وقال:

- فقط أريد أن أسمع منك مُلابسات وفاة زوجتك منذ ستة أعوام.

- لا يوجد ما يُقال. لا يوجد سوى ما يعرفه الجميع. كان يومَ أحدٍ، خرجنا في نزهة خلوية أنا وزوجتي وسوزان متوجهين إلى متنزَّه خارج البلدة. كانت سوزان في العاشرة. تناولنا الغداء وقررنا أن نذهب في رحلة بقارب في البحيرة. يمكنك تأجير قوارب صغيرة من هناك لهذا الغرض، استأجرنا واحدًا وأبحرنا بعيدًا حتى ما عُدنا نرى المرفأ. كانت سوزي سعيدة للغاية، لكنها ما انفكَّت تقوم وتتحرك، وأنا أنصحها بالجلوس، لكنها لم تُنصت لي. قلت لها إن أمرًا سيئًا سيحدث لو لم تنصَع، بالفعل سقطت الفتاة في الماء.

سأل جريجوري:

- وهل تستطيع هي السباحة؟

- كلا. فورًا قفزت خلفها، ولكن يبدو أنني قلبت القارب بوزني الثقيل أثناء قفزي. فجأة وجدت سوزي بين ذراعي تصرخ، وزوجتي تحت الماء، لا أستطيع ترك سوزي والوصول إليها و...

ونكس جارث رأسه في حزن.

قال جريجوري:

- وغرقت زوجتك.

- كدت أن أغرق كذلك، لكنني نجحت في قلب القارب والعودة إليه مع سوزي. في نفس الوقت، اقترب منا قارب آخر، أعتقد أن رُكَّابه سمعوا صوت الصراخ، لكن الوقت كان قد فات على إنقاذ زوجتي.

تبادَل جريجوري والأسقف النظرات، ثم قرَّر جريجوري الخوض في إثبات حدسه. سأل جارث:

- ماذا عن التأمين؟

سأل جارث في ضيق:

- إلامَ تُلمح؟!

قال الأسقف:

- لا تقل لي أن موت زوجتك لم يجلب لك بعض المال من بوليصة التأمين على الحياة.

قال جارث في حنق:

- اسمعا، لستُ أوَّل رجل في العالم يحصل على مال بوليصة التأمين بعد وفاة زوجته.

ابتسم الأسقف وشبح ابتسامة نصرٍ يلوح على وجهه:

- بالتأكيد، ولن تكون الأخير.. لكنك حصلت على ما هو أكثر من المال.

احتجَّ جارث:

- لم يحدث! البوليصة..

- حصلت على سوزان.

- ماذا تقول؟!

أمسك جريجوري بطرف خيط حديث الأسقف وأحكمه حول رقبة جارث قائلًا:

- حصلت على سوزان، كانت معك في المنزل وحدها طيلة الوقت، دون وجود أم تتدخل بينكما. حتى وهي في عمر العاشرة، سوزان كانت فتاة جميلة، أليس كذلك؟ كنت تحب أن تجلب لها الحلوى وتُجلسها على فخذيك و...

- بالتأكيد كنت أفعل كل هذا، فأنا أبوها!

قال جريجوري:

- لكن الأمر معك كان أكثر من مجرد مشاعر وتصرفات أبوية. مشاعر لم تكن تقدر على التعبير عنها مع وجود أمها..

- أنت مجنون!

جرَّب الأسقف مناورة مختلفة وقال:

- قبل أن تولد سوزان، وقبل أن تتزوج من الأساس، تعرضت للمتاعب بسبب مشاكل مشابهة، أليس كذلك؟

- كلا!

سأل جريجوري مُزيدًا الضغط عليه:

- ألم تحاول أن تقيم علاقة جنسية مع ابنتك بعد وفاة زوجتك مباشرة؟

- كلا لم يحدث هذا! كلاكما مُختل!

دفعه جريجوري أكثر إلى حافة الانفعال وقال:

- ألهذا كنت تعارض ذهاب سوزان إلى طبيب نفسي؟ لأنك كنت تخاف أن يُكشف أمرك!

صرخ جارث:

- كلا!

- هذه هي الحقيقة!

كانت العبارة الأخيرة من سوزان نفسها، كانت عيناها مفتوحتين ترمقان جارث بنظرة شيطانية، وأردفت:

- لم يكن قد مرَّ على وفاة أمها أسبوعًا، وبدأت من فورك التحرش بالفتاة.

هتف جارث:

- سوزي!

- كنت تخبرها كم صرت وحيدًا بعد وفاة زوجتك، وكيف يمكها أن تحل محل أمها وتصير امرأة المنزل، سيدة ناضجة جميلة. كانت هذه هي كلماتك.. كنت تريدها سيدة كبيرة ناضجة في كل شيء!

صاح جارث:

- اخرسي!

- وبالطبع على الفتاة أن تُري أباها كيف تحبه، عليها التفنن في وسائل التعبير، الوسائل التي وصفها لها بدقة..

قام جارث من كرسيه صارخًا:

- يا لك من حثالة كاذبة، لتذهبي إلى الجحيم أنت وأبالستك، أنا ألعنك!

وانفجرت الفتاة على الفراش في الضحك. جلس جارث مجددًا وقال:

- كل ما زعمته كذب.. كذب.. لا تصدقوها.. لقد كانت هي.. هي مَن أغوتني!

قال الأسقف بلهجة مُزدرية:

- أتظن أن أحدًا سيصدق كذبتك البائسة؟ أغوتك بعد أن قتلت أمها؟!

تنهَّد جارث قائلًا:

- أفهم من أين وصلتك الفكرة، منها. هي لم تتوقف قَط عن اتهامي بقتل أمها. كانت تسألني دومًا: لم قتلت أمي؟ لم تركتها تموت؟ أنت قتلتها! أنا لم أكن زوجًا مثاليًا، وأعرف أن الموت غرقًا قد يثير الشكوك، خاصة مع عدم وجود شهود سوى سوزي، لكنني لم أقتلها، لستُ مثاليًا لكنني لم أقتلها!

سأله جريجوري:

- لم انتزعت الصليب عن حائط حجرة نومك؟ ألم تتحمل النظر في عيني يسوع؟

أطرق جارث راسه مجددًا وأجاب:

- ربما، لكن ليس لأنني قتلتها..

بحث في جيبه عن منديله القماشي وأردف:

- دعنا ننهي هذا الوضع، لنفك وثاقها وسآخذها إلى المنزل.

- لن تأخذها إلى أي مكان.

قام جارث مُعترضًا وقال:

- حقًا؟! اسمع، لا أعرف مدى نفوذك لدى الشرطة، لكن لن يروق لهم أن يعرفوا أن ابنتي مُحتجزة هنا رغم إرادتها..

- رغم إرداتها؟

- إذًا لم قيدتموها؟! هذه قصة جيدة، رَجُلا دِينٍ يقيدانِ فتاة في منزل قساوسة، وحي يأتي أباها لينقذها، يمنعونه! قصة مريعة كما تريان. فُكا وثاقها أم أفكه أنا؟

قال جريجوري:

- سأفكُّه حين ننتهي أنا والأسقف مما بدأناه.

- حِل وثاقها حالًا!

قال جريجوري في حزم:

- حين نتهي. يمكنك الذهاب للشرطة الآن إن شئت. في الحقيقة أوَدُّ لو تذهب وتمنحنا بعض الوقت.

- بعض الوقت لأي غرض؟!

- لا أظنني سأخبرك يا سيد جارث، فأنت لم تكُن متعاونًا معنا، فلمَ نثق بك؟ بالإضافة إلى أنني أظنك تعرف ما نفعل، ولهذا تثير المشاكل.

تجاهَل جارث آخر عبارات جرجوري وقال:

- إن كنت تظنني سأخرج من هنا بدون سوزي، واتركها معكما ف...

قال الأسقف:

- إذًا لا ترحل.

- لا أرحل؟

- ابقَ وشاهد، ابقَ واحمِ ابنتك من رجال الدين المنحرفين وأردت. لكننا صدقًا لن نفعل أي شيء سوى قراءة بعض العبارات من كتاب.

ساد الصمت الغرفة، ومن الخارج تعالى صوت المطر والرعد. قال جارث مُتشككًا:

- لو أن هذه خدعة...

قاطعه الأسقف:

- ابقَ واكتشف بنفسك.

ودون أن ينتظر ردًا، التفت إلى جريجوري وطلب منه أن يعيد بدء الطقس. أشعل جريجوري الشموع بينما قال الأسقف:

- سيدة فارلي، أعتقد أنه من الأفضل أن تغادري الحجرة هذه المرة.

ونظر تجاه جارث، ففهمت السيدة فارلي وغادرت الحجرة تاركة الفتاة المقيدة مع الرجال الثلاثة، ووقفت في الردهة الخارجية.

بدأ جريجوري في التلاوة، وبالنسبة لجارث كان ما يقوله الراهب مجرد كلمات لاتينية لا يفهمها، حتى وصل إلى نهايات الطقس.

- أيها التنين البائس، ويا فَيلق الشر، نطردك بقوة الرب الحي..

ورسم جريجوري الصليب على جسده وأكمل:

- بسم الله الحق، بسم الرب، بسم الإله الذي منح العالم ابنه...

اهتزت النافذة بعنف تحت وطأة الرياح، توقف جريجوري عن القراءة، وبدا وكأنه يتلو من صميم روحه:

- توقف عن خداعك للبشر، توقف عن تسميمهم بنبوءاتك..

تزايدت قوة الريح وجريجوري يهتف:

- اخرج يا إبليس!

صرخت سوزان صرخة غير بشرية، صرخة ألم لا يُحتمَل، وانكسر زجاج النافذة وناثرًا الشظايا على الأرض، وانطفأت الشموع. رغم كل هذا، استمر جريجوري في التلاوة وسط الغرفة التي لا يضيئها سوى نور النهار الشاحب المحجوب بالسُحب الداكنة.

- اخرج يا إبليس، يا أبا الشر والزور، يا عدو البشر..

ثم أضاف:

- لنصلي جميعًا.

ركع جريجوري والأسقف، وراحت سوزان تئن، ولأول مرة من ساعات طوال يعد صوتها صوت فتاة طبيعية. لكنه لم يشأ أن يتسرع في الحكم على خلاصها، فأكمل:

- يا رب الملكوت، يا رب الأرض، يا رب الملائكة، يا رب رؤساء الملائكة، يا رب البطاركة، يا رب الأنبياء، يا رب الرسل، يا رب الشهداء، يارب التائبين، يارب المتبتلين، يا من تملك قوة البعث بعد الموت، لا إله قبلك، ولا إله بعدك، يا خالق المرئي والمحجوب، يا من لا نهاية لمُلكه. ندعوك كي تعينَّا على النجاة من مكائد الشيطان، وأن تحمينا من الخطايا، آمين..

قال الأسقف الراكع:

- نجنا من مكائد الشيطان، كي نخدم كنيستك.. اسمع دعاءنا..

أنهى الأسقف آخر كلمات طقس طرد الأرواح الشريرة. قام جريجوري وراح يرش أرجاء الحجرة بالماء المُقدَّس، بينما هرع الأسقف إلى سوزان، ورأى في الضوء الشحيح ملامحها هادئة. قال برفق:

- عزيزتي، هل أنتِ بخير؟

قالت بصوتها الطبيعي الرقيق:

- أجل.. أشعر أنني أفضل بكثير.

وتدريجيًّا أشرق وجهها، وكأنه وجد امرأة وَضَعت وزال عنها ألمها وفرحت بما رُزِقت. سألت في وهن:

- كل شيء على ما يرام الآن، أليس كذلك؟

فك الأسقف وثاقها وهو يقول:

- أجل يا عزيزتي..

تنهدت بعمق، وأغمضت عينيها وغاصت في نومٍ عميقٍ هانئ. همس الأسقف في فخر:

- لقد فعلتها يا جريجوري!

التفت جريجوري لجارث:

- جارث، لقد غادر.

ثم فتح باب الحجرة وراح يبحث عنه وينادي:

- جارث؟ أين أنت؟

لكن لم يتلقَّ أيَّ ردٍّ. ثم رأى السيدة فارلي تصعد الدرجات إليهم، فسألها:

- سيدة فارلي، هل رأيتِ.

غمغمت بشيء لم يتبينه، وكان وجهها مبيضًا، وعيناها مذهولتين. كررت ما قالته:

- يد الرب.. يد الرب، رأيتها..

- عمَّ تتحدثين؟

- رأيت يد الله تبطش به..

- قولي شيئًا مفهومًا!

- رأيت يدَ الله تبطش به وتُرديه قتيلًا!

- أردت من قتيلًا؟

- الشيطان يا أبتاه! يد الله أردت الشيطان..

تهاوت المرأة فتلقفها جريجوري بين ذراعيه، نظرت إليه بعينين زائغتين وقالت:

- الشيطان ذاته.. جارث..

وأغشي عليها.

-14-
القنبلة تحت الفراش

النجم المُتقزم الذي يطلق عليه علماء الفلك إريداني-٤٠ يزن نصف وزن الشمس، لكن مكوناته مضغوطة في حجم يقارب حجم المريخ. الكتلة الصغيرة تخلق قوة جذبٍ هائلة تجذب حتى الضوء المنبعث من النجم ذاته، وتبطئ من حركته حتى إن توقيت الكوكب نفسه يتباطأ بمعدَّل ست ثوان في اليوم الواحد.

قرأ جريجوري عن إريداني وزمنه المُتباطئ في مجلة علمية، لفتَ نظرَه المقالُ وقتها ثم نسي عنه كل شيءٍ. ثم تذكره الآن وهو يشعر بتباطؤ زمنه. مرت عليه السويعات السابقة ببطءٍ شديدٍ، صانعة حولها حقلًا مغناطيسيًّا يجذب الرعب والهلع. كل ما رآه وسمعه يغشي عينيه بضباب الصدمة.

يُذكَر أن الملازم بيراردي كان يردد عبارة:

- أيُّ شيء تقوله أو تفعله قد يؤخَذ ضدك في المحكمة.

ويذكر أنه كان يجيب في هدوء:

- أجل أعرف، لذا لن أحكي شيئًا حتى أجد الكلمات المناسبة التي تفسر ما كنا نفعله أنا والأسقف.

- ألديك فكرة عن سبب الوفاة؟

وصل صوت بيراردي لجريجوري عبر مسافة بعيدة، وفكر في آخر مرة رأى فيها جارث حيًّا. كان معهم في الحجرة الصغيرة قبل بدئه في الطقس. ما حدثَ بعدها لم يذكره جريجوري بدقة، لكن يبدو أن جارث قد فرَّ من الحجرة، وقد رأته السيدة فارلي التي كانت واقفة بالخارج ينطلق هاربًا مذعورًا. نزل عَدْوًا على الدرجات وخرج من المنزل. قالت السيدة فارلي إنه خرج حين أمر جرجوري الشيطان بالخروج من جسد الفتاة، ولمَّحت أن جارث هو الشيطان نفسه. لكن لا أحد يعلم على وجه الدقة متى غادر جارث الحجرة.

كان ثمة رجل يعبر من أمام مَسكن القساوسة وقتها، كان يعبر عَدْوًا بسبب الأمطار في الواقع، قرع الباب وأخبر السيدة فارلي أنه رأى جارث يهرب من المكان، ويتجه شمالًا. استنتجت السيدة فارلي أنه توجه إلى مطبعة تالبوت، قال العابر إنه رأى صاعقة كرمحٍ من السماء تضرب جارث وتقتله فورًا.

قالت السيدة فارلي:

- أنا رأيت البرق بنفسي، رأيت الرمح الذي شق السماء وأنا أنظر من النافذة، بعدها بدقائق جاءني العابر يخبرني بأمر جارث. كانت هذه هي يد الرب التي أطاحت به.

مات جارث بالطبع أثناء فراره من مَسكن القساوسة، لكن الفحص لم يجد آثار صعق أو حرق، وبدا من فحص مكان الحادث أن لسان البرق ضرب الأرض جواره ولم يُصِبه.

لم يعجب السيدة فارلي ما قيل، وأضافت أنه إن لم يكن جارث الشيطان نفسه، فقد كان في طريقه إلى الشيطان، سيده، إبليس المُسمى بتالبوت.

أما إجابة جريجوري على سؤال بيراردي بشأن سبب الوفاة، فقال:

- لا أعلم.

سأل بيراردي نفس السؤال للأسقف، فأجاب:

- ليس لدي تفسير سوى التفسير الأبسط.. يد الرب.

- تعني أن يد الرب وراء كل وفاة، أليس كذلك؟ لا يموت أحدٌ إلا بإذن الله.

- بالتأكيد، أعتقد أن هذا ما أعنيه.

- حتى القتل يكون بيد الرب؟

- أنت تُلمِّح إلى أن جارث قد قُتلَ؟

ضحك بيراردي وقال:

- أنا أعمل في قسم القتل، وفي حالتنا هذه الجريمة واردة.

- جريمة قتل في مسكنُ القساوسة وبحضور كاهن وأسقف؟

- ثمة آخرون هنا، السيدة فارلي، والفتاة.

هتفت السيدة فارلي:

- أنا لم أقتل أحدًا.

طمأنها بيراردي قائلًا:

- أنا لا أتهمك يا سيدتي. هل لديك أقوالٌ أخرى؟

- كلا.. فيما عدا... هذا أمرٌ تافه.

- أخبريني.

- لقد خرج الأب جريجوري والأسقف لدقائق خارج الحجرة ليتحدثا في خصوصية، وظللتُ أنا في الحجرة مع جارث والفتاة فاقدة الوعي. رأيت جارث يُخرِج علبةً من جيبه ويضع قرصًا منها في فمه. أظنه دواءٌ ما.

علبة دواء؟ بدأت الذكريات تعود إلى عقل جريجوري، وشعر بتقلصٍ في معدته، ودعا الله ألا يلاحظ أحدٌ اضطرابه. تساءل بيراردي:

- أقراص؟ لا بُدّ وأنها العلبة التي وجدناها في جيبه، كانت أفضل أدلة حصلنا عليها في هذه القضية حتى الآن.

سألت السيدة فارلي:

- هل يمكنني أن أصعد كي أطمئن أن الفتاة بخير ولا زالت نائمة؟

قال بيراردي:

- بالطبع. لكن عودي بسرعة إلى حجرة المعيشة، فقد أحتاج إلى سؤالك عن تلك الأقراص.

ذهبت السيدة فارلي إلى حجرة النوم، وتسلَّلت داخلةً على أطراف أصابعها. كانت سوزان نائمةً في هدوء، فأغلقت السيدة فارلي الباب وعادت لتنضم إلى الجمع بالأسفل.

في حجرة المعيشة، كان بيراردي يتصل بمكتب الطبيب الشرعي. قال:

- هل الطبيب فوستر هنا؟ أجل، الأمر هامٌّ... هل من أخبارٍ؟... حسنًا، فور معرفتك بسبب الوفاة أخبرني. قل لي، تلك الأقراص التي وجدناها في جيب المتوفى، أعرفتم ماذا تكون؟.. لم يكن العلبة مكتوب عليها شيء؟ غريبة.. إذًا أرسِل الأقراص للتحليل واتصل بي في مسكنُ القساوسة فور وصل النتيجة.

وأملاه بيراردي الرقم قبل أن يُغلق الخط. قال في استمتاع:

- انتحار؟ ربما، لم نتأكد بعد. أيها الأب جريجوري، ذكرت أثناء حديثنا شيئًا عن سجل جارث الإجرامي، ماذا كنت تعني؟

- أولًا كنت أتساءل إن كان جارث قد تورَّط من قبل في جرائم تتعلق بالتحرش بالأطفال، ربما منذ أعوامٍ أو كانت ينتحل صفة أو اسمًا مختلفًا وقتها.

- يمكننا التأكد طبعًا من هذا.

- ثانيًا، توفيت زوجة جارث في حادث غرق منذ ست سنوات، هل يمكنكم إعادة التحقيق في أمرِ وفاتها؟

- أنت تشك في خدعة؟

- أجل.

حكَّ بيراردي ذقنه وقال:

- ست سنوات وقتٌ طويلٌ، أكان ثمة شهود؟

- جارث وابنته.

- لديك شكوك مخيفة يا أبتاه، قتل، تحرش بأطفال..

- لو أن لشكوكي أصولًا، فربما تلقي ضوءًا على سبب وفاة جارث. لو أن جارث قد خشي أمر اكشاف جرائمه، فربما يكون قد انتحر. هذا مجرد تخمين.

- تخمينٌ جيد. سأحاول التحقيق فيما طلبت.

صمت بيراردي لوهلة وكأنه يركز في أمرٍ ما، ثم سأل:

- لو أن جارث انتحر لأنه حوصر، ولو أنه لم يشعر بالخطر قبل قدومه إلى هنا، فلم كان يحمل معه سُمًّا؟ هذا أمرٌ غير مُفسَّر.

قال جريجوري مُترددًا:

- ربما كان...

- كان ماذا؟

- لا أعرف، كل شيء أقوله ربما يستخدم ضدي في المحكمة.

- لديك حق، لكن حجب معلومات هامة أمرٌ ضد القانون، ومعلومات كتلك سنحصل عليها منك عاجلًا أو آجلًا.

ابتسم جريجوري قائلًا:

- فهم، لكن ما أفكر فيه مجرد تخمين آخر. ماذا لو كانت العلبة مجرد علبة دواء عادي مما يحمله المرء معه لعلاج الصداع مثلًا، وشخص ما بدَّل محتواها بسم؟

سأل بيراردي:

- شخص ما؟ مَن؟

- لا أعرف..

- أبتاه، ماذا عن ابنته؟ أنا احترمت طلبك ولم أستجوبها، وقلت إنها مرت بظروف مريعة لا يسعك حكيها لي، وأنا أصدقك. لكن عدم أخذ أقوالها سيترك الكثير من الفجوات في التحقيق. لدي حَدسٌ أنها قد تساعدنا.

- سيدي الملازم، أريد مساعدتك، لكن ليس على حساب سلامة الفتاة العقلية. قد يكون استجوابها الآن خطرًا عليها، فاليتيمة لم تعرف أن أباها قد مات بعد.

ذِكر كلمة اليتيمة ذكَّره بالأب هالوران، وكيف أن مخالب قوى الشر -سواء كان الشيطان أو الجنون- قد حولت اتهامها من جارث إلى الأب هالوران في البداية، كبديل الأب، حتى لم يكن أحدٌ واثقًا أي الاتهامين صِدق. لكن، هل هو واثق الآن من أن جارث هو الجاني؟

جارث توفي ولن يستطيع الدفاع عن نفسه، وسوزان قد تعافت، فكيف يمكن إثبات الحق من الباطل دون استجوابها والتحقيق في صحيفة سوابق جارث؟

بل كيف يمكن إثبات براءة الأب هالوران، الرجل المُتبتل الذي رأى فتاة عارية في مكتبه واختلى بها. مسألة براءته وإثمه لا زالت علامة استفهام.

قال بيراردي:

- كيف تتأكد من أنها لا تعرف بأمر وفاة والدها؟

- كانت غائبة عن الوعي، ولم نخبرها بعد.

- ربما لا تحتاج لمن يخبرها. فكِّر معي، من يريد موت الرجل؟ مَن قد يريد -أو تريد- قتله حتى إنه بدَّل أقراص دوائه بسُمٍّ؟ عليَّ أن أتحدث مع هذه الفتاة.

- لا يمكنك ذلك!

حدق بيراردي في عيني جريجوري بقوة وقال:

- هل تُقسم بشرفك كرجل دين إن الفتاة غير قادرة على القتل؟

وتذكَّر جريجوري ما قالوه عن أظفار سوزان المغروسة في حنجرة الأب هالوران.
أردف بيراردي:

- ضَعْ يدَك على كتاب الصلوات وأقسم لي.

أشاح جريجوري ببصره بعيدًا وهمس:

- كلا.

- حسنًا إذًا، أحضِرها لي.

قال الأسقف:

- ذنب تدمير عقل الفتاة بالاستجواب الآن سيكون على رأسك أيها الملازم. أنت الوحيد المسؤول عن...

- سأتحمل المسؤولية، نيافتك.

سأل الأسقف:

- لكن لماذا؟ ولأي سبب تفترض أنها قتلت أباها؟!

نظر بيراردي في حيرة إلى الأسقف وهتف:

- لا أصدق أذنيَّ، ولأي سببٍ أفترض أنها قتلت أباها؟!

- لنفترض أنها قتلته، والله شاهد عليَّ، فهي كانت مدفوعة لذلك. الرجل ارتكب أفظع الجرائم في حقها. لا يوجد محكمة في الأرض يمكن أن تُدينها.

- الحكم ليس لك.

كرر الأسقف:

- لا يوجد محكمة في الأرض يمكن أن تُدينها، مهما ظهرت من أدلة. عندما طلبت من الأب سارجِنت أن يقسم لك إنها غير قادرة على القتل، أنكر تلك القدرة رغم أنه

كان يريد أن يقول إنها قادرة، لكن كيف ينطقها؟ رغم أنه كان يعلم أن الفتاة هاجمت الأب هالوران وكادت تقتله.

- ماذا؟!

- ومع ذلك أقول لك إن القانون لا يمكن أن يُدينها وهي تحت ظروف قهرية.

- أي ظروف؟!

- كان تحت سيطرة....

قاطعه جريجوري سريعًا:

- الفتاة لم تكن نفسها.

سأل الملازم:

- أتقصد أنها كانت مُختلة أو فاقدة للعقل؟

- كلا، كانت مُتلاعبٌ بها.

- ومن تلاعب بها؟

- لا.. لا أستطيع أن أخبرك.

صاح بيراردي مُعترضًا:

- إلهي!

ثم وجَّه حديثه للأسقف قائلًا:

- نيافتك، قلت منذ ثوانٍ إنه لا يوجد محكمة في الأرض قادرة على إدانتها إن عرفت الظروف التي كانت تمر بها، فهلا أخبرني أحدٌ بكنه هذه الظروف؟! لستُ عدوكما!

قال جريجوري:

- بالطبع لست عدوَّنا، لكنَّ الآخرين هم أعداؤنا، وكل شيء نقوله ربما يُستخدَم ضدَّنَا في المحكمة. هيئة محلَّفين تضم أمثال جون تالبوت قد تُدينا.

- وما علاقة تالبوت بكل هذا؟

- ما كنا نفعله هنا لا يمكن لأحدٍ أن يلومنا عليه، ما كنا نفعله كان مقبولًا ومطلوبًا في الماضي. لكن المعاصرين سيرون فيه الكثير من ظلال السحر ودروب الشعوذة. معرفة ما نفعله سيُضرِم النار في نفوس تالبوت وأمثاله. سيقولون أننا مشعوذون وجهله، سيزعمون أننا نسحب الناس لعصور الجهل والظلمات بأفعالنا. وعندما أتحدث بصيغة الجمع، فأنا لا أعني نفسي ونيافة الأسقف فقط، لكنني أعني كذلك الكنيسة بأكملها أيها الملازم. كنيستنا ستغرق في العار والسخرية.

قال الملازم ضجِرًا:

- أنا أريد التعاون معكم، ولستَ شرير الرواية، فأنا كاثوليكي صالح. لكنني كذلك شُرطي، ولدي عمل أقوم به. عملي يرتكن على الحقائق، وكلما وجدت أدلة حقيقية في كلامكما، توصدا أمامي باب الوصول إليها. كلما سألت سؤالًا حُجِبت عني الإجابة. أنا أحاول أن أكون لطيفًا ومحترمًا، لكن عليَّ أن أتوقف عن لعب هذا الدور لأن في هذا المنزل فتاة ربما تكون قد قتلت والدها. فتاة قتلت رجلًا وحاولت قتل آخر. لكنكما تقولان إنها غير مُلامة، وتقولان إنها ليست مجنونة، وتقولان إن حديثي معها سيفقدها عقلها! ضعا نفسيكما مكاني!

قال الأسقف:

- عليكَ..

قاطعة بيراردي:

- عليَّ أن أكون شُرَطيًّا، هذا هو كل ما عليَّ فعله. آسف لكن القضية لن تتماسك دون استجواب الفتاة. سأتحدث إليها حتى لو تطلب الأمر إلقاء القبض عليكما لو منعتماني.

هدر صوت السيدة فارلي قائلة:

- كيف تجرؤ!

في هدوء قال بيراردي:

- أحضِري الفتاة يا سيدتي.

ثم قال لجريجوري:

- أبتاه؟

- لا أستطيع.

قام بيراردي متوجهًا نحو الدرجات وهو يقول:

- حسنًا، لم تتركا لي خيارًا آخر.

قفز جريجوري أمامه مانعًا إياه من التقدُّم هاتفًا:

- لا يمكنها الحديث الآن.. مستحيل.

- ابتعد عني!

- أنا أعرف أنها لم تقتله!

- ابتعد عني!!

تساءل جريجوري: هل سيدفعني بعيدًا عنه؟ هل سيمس بيديه كاهنًا كنسيًّا ثم يؤنب نفسه بعدها؟

لكن الأسئلة لم تُجاوب، فقد رنَّ جرس الباب. قال بيراردي كاتمًا غضبه:

- أنقذكما جرس الباب. سأفتح أنا، غالبًا هو واحد من رجالي. وحين أعود، سأصعد للفتاة سواء وافقتما أم لا.

خرج من الحجرة، وسمعا صوت الباب يُفتح ثم صوت حديث بعيد، ثم دخل بيراردي خلفه الأب هالوران.

رحَّبت به السيدة فارلي دامعة العينين:

- أبتاه! سعيدة لمرآك، الأمور كانت تسوء منذ غادرتنا..

حياه جريجوري صامتًا، خائفًا مما ستكشف عنه الزيارة. أما الأسقف فقد بادره بالسؤال:

- جيمس، بُني.. لمَ عُدت؟

نظر إلى وجه الأب هالوران المُرهَق، وعينيه المُحاطتين بالهالات السمراء، والتجاعيد المُتزايدة على قسماته من قلة النوم. لم يرَ الأسقف طيلة حياته رجل أو امرأة في مثل هذه الحالة البائسة.

أجاب الأب هالوران بصوت هامس، مُرتجف، ملأ الأسقف رُعبًا:

- جئتُ أعترف..

***

قال بيراردي على الفور:

- انتظر! لا تُقل حرفًا أيها الأب هالوران.

كان بيراردي يتحدث في الهاتف، ويأمر بإحضار جهاز تسجيل صوتي إلى مسكنُ القساوسة.

خلال خمس عشرة دقيقة كان الجهاز قد وصل، وتم تفريغ ما سُجل عليه ليلًا.

« الأب جيمس هالوران: جاءني جارث ذات يومٍ كي يعترف، قال لي...

الأسقف كونراد كريمينجز: جيمس!

الأب جيمس هالوران: أعرف، نيافتك. أنت مصدوم كوني سأخون سر الاعتراف. لكن الخيانة قد تمت، كما ستعرف لاحقًا، وما سأقوله لن يُزيد الأمر سوءًا.

الأسقف كونراد كريمينجز: خُنت سر تائبٍ يا جيمس؟

الأب جيمس هالوران: أجل.

الملازم فرانك بيراردي: أكمل يا أبتاه.

الأب جيمس هالوران: كان جارث يحمل همًّا عظيمًا على كتفيه لوقتٍ طويلٍ، وكان عليه إنزاله عن كاهليه. منذ أعوامٍ مضت، أعتقد أنه قال ستة أعوام، تركَ زوجته تغرق عمدًا. دفعها عن قارب تجدِّيف. سألته لمَ اقترف جريمة كتلك، أجابني: من

أجل مال التأمين على الحياة. قال إن المبلغ كان عشرة آلاف دولار. أعرف أن المبلغ كبيرٌ، لكن أن يقتل المرء زوجته لسببٍ كهذا؟ كنت مصدومًا. لكن البشر يقتلون لأسباب أوهى أحيانًا. ثم سألته عن التفاصيل، مَن المُنتفع بالبوليصة؟ فقال: أنا. سألته، أمِن أحدٍ آخر؟ قال: سوزان، نتشارك قيمة البوليصة. وأفزعني أنه قتل زوجته، ولم يكن المال بكامله مِلكه حتى. لمَ قد يكتفي بجريمة قتلٍ واحدة؟ ماذا يمنعه من قتل الابنة ليكون المال له وحده؟ جريمتا قتل بفاصل ست سنوات ستبعد عنه الشبهات. صرَّحتُ له بما اعتمل في قلبي؛ قلت له إن الله لن يغفر له إن كان في نفسه نية لجريمة قتلٍ أخرى. قال: لن أقتل سوزان أبدًا، أنا أحبها كثيرًا، صدقني يا أبتاه. وصدقته.. لو كنتم قد سمعتموه لصدقتموه مثلي. كان صادقًا، لكن حين تأتي سيرة ابنته، كنت أستشعر شيئًا مُقلِقًا.. شيئًا لم أستطع وضع يدي عليه. غادر جارث حجرة الاعتراف بعد أن وعدني أنه سيسلِّم نفسه للشرطة. مرت الأيام وكنت أراه في الكنيسة، وفي الشارع، وعرفت أنه لم يذهب للشرطة قَط، ولن يذهب.

وهنا بدأ الأرق يزورني، كنتُ قليل الحيلة، كنت أعرف بشأن جريمة قتل، أعرف أن القاتل قد يقتل مُجدَّدًا، ومع ذلك لا يمكنني إخبار أي شخص آخر. مرت ليالٍ شقيت فيها بلا نوم، أفكر في طريقة غير مباشرة أثير بها شكوك الشرطة دون أن أصرِّح بشيءٍ. كنت أعرف أنه مُحرَّمٌ عليَّ التلميح بمحتوى الاعترافات، فكيف أثير الشكوك؟ تذكرت ما قيل في أحد الدروس اللاهوتية؛ لو أن رجل دين سمع في حجرة الاعتراف أن رجلًا وضع قنبلة موقوتة تحت فراشه، ما استطاع أن يفعل شيئًا، فلا يمكن لرجل الدين أن يستخدم ما قيل في حجرة الاعتراف بأي شكل، لا يمكن أن يزيل القنبلة من تحت فراشه، لا يمكن أن يذهب لينام في مكانٍ آخر. عليه أن ينام على سريره وكأنه لم يسمع شيئًا!

لذا، فكما ترون، لم يكن في وسعي فعل أي شيء حتى لو كان ما سمعت يهدِّد حياة فتاة بريئة.

مرت الأيام والليالي، وجارث المُجرم حرٌ طليق. ذهبت إليه في بيته، ورجوته أن يعترف للشرطة.. أمرته أن يعترف.. وفي النهاية توسلت إليه، قلت له إنني لن أغادر بيته إلا لو اتصل أمامي بالشرطة واعترف. قال لي أنه سيعترف بعد أن يعود هو وسوزان من رحلة يخططون لها في الريف. قال إنها كانت تحلم بتلك الرحلة، وستكون آخر ما يفعله من أجلها.

صدَّقته مرة أخرى، ثم حين عدت لمسكنُ القساوسة بدأت أفكر.. رحلة إلى الريف؟ لماذا؟ سيقتلها كما قتل أمها!

وحين وصلتني رسالتك سيدي الأسقف بأن منصبًا في ملجأ الأيتام صار مُتاحًا، شعرت بالراحة فورًا. الابتعاد عن جارث سوف يريحني من ألم رؤيته حُرًّا. ربما يُنسيني انشغالي في مهام عملي مُعضلتي. لكن للأسف، في الملجأ رأيت فتيات في عمر سوزان، وفي جمالها. كان وجودهن يُذكرني بأنني تخليت عن الفتاة، ورحت أحلم بها قتيلة في كل يوم، كانت تزور منامي وتتهمني بالتخلي عنها. لكنني كنت موقنًا أنه لم يكن في مقدوري فعل أي شيء.

حين وصل الأب جريجوري إلى كنيسة الملاك ميخائيل، عرَّفته على عائلات الإبرشية، وأرجأت مقابلته لجارث لأني كنتُ خائفًا من توريطه فيما تورطت فيه. في يومي الأخير في الإبرشية، وأثناء مروري والأب جريجوري على الرعيَّة، أنهيت الزيارت بالذهاب للصيدلي السيد هينسي. الذي سألني: ألن تزوروا عائلة جارث؟ كدت أن أقوله له إننا لن نزورهم، لكنني رأيت أنني لن أستطيع تفادي جارث أكثر من ذلك. طلب مني الصيدلي توصيل دواء لهم بما أننا سنزورهم. كان معتادًا على إرسال الأدوية إلى العائلات من خلال زياراتي، وكانت عادته تلك مألوفة لدي.

الملازم فرانك بيراردي: أكمِل يا أبتاه.

الأب جيمس هالوران: وفي ليلتها، أوصلت لجارث علبة دواء. يمكن للأب جريجوري أن يؤكد كلامي.

الملازم فرانك بيراردي إلى الأب جريجوري سارجِنت: أهذا صحيح؟

الأب جريجوري سارجينت: أجل.. صحيح.

الملازم فرانك بيراردي إلى الأب جيمس هالوران: تقصد علبة الدواء المُزيف.

الأب جيمس هالوران: أجل.

الملازم فرانك بيراردي: هل خلط الصيدلي الدواء عن غير قصدٍ؟

الأب جيمس هالوران: كلا، لم يخطئ الصيدلي. اللوم عليَّ.

الملازم فرانك بيراردي: لا أفهم.

الأب جيمس هالوران: اليوم فقط اكتشفت خطئي المُريع. أنا أتناول أقراص أملاح حين يكون الجو حارًا فقط، واليوم أخرجت علبة دوائي من جيب معطفي لأتناول قرصًا، لأجد أن العلبة مُختلفة رغم تشابه علبة الدواء مع دوائي، حتى في شكل وحجم الأقراص. كانت العلبة تحمل علامة صيدلية هينسي، ومكتوب عليها «إلى جارث». أنا بدلت بالخطأ أقراص القلب الخاصة بجارث بأقراص الأملاح الخاصة بي.

فورًا رفعت سماعة الهاتف أتصل بالصيدلية وأطلب منها أن يوصلوا علبة دواء قلب لجارث بدلًا من التي معي. أقراص الملح لم تكن ذات فائدة له، بل إنها كانت خطرة. وقبل أن أخبر هينسي بسبب اتصالي، أخبرني أن جارث توفي.

الملازم فرانك بيراردي: الأخبار تطير سريعًا هنا.

الأب جيمس هالوران: لذا، لم أخبره شيئًا عن الأقراص، وجئت مُسرعًا.

الأسقف كونراد كرمينجز: جيمس، نتفهم شعورك، لا تلُم نفسك.

الأب جيمس هالوران: الذنب ذنبي..

الأسقف كونراد كرمينجز: ولِمَ؟

الملازم فرانك بيراردي: نيافته مُحِق يا أبتاه.

الأب جيمس هالوران: كلا، الذنب ذنبي.. اسألوا الأب جريجوري عما أعنيه.

الأسقف كونراد كرمينجز: أتعرف ما معنى هذا يا جريجوري؟

الأب جريجوري سارجِنت: ربما.

الأب جيمس هالوران: الأمر كان خطأ مني، لكن لمَ يخطئ الناس؟ أنت تعرف كل شيء عن العقل الباطن أيها الأب جريجوري. تعرف عن زلات اللسان، وزلات اليد. أيمكن أن أكون بدَّلتها عمدًا دون أن أعي؟

الأب جريجوري سارجِنت: ربما، لكن...

الأب جيمس هالوران: وضع الصيدلي في يدي العلبة التي تحوي دواء جارث، حياته بين يدي حرفيًّا، وحين منعت جارث عن دوائه أكون قد قتلته. لم أقتله فقط، بل استخدمت معرفتي بفحوى اعترافه، كأنني أزلت القنبلة من تحت فراشي. كانت الأمر بالفعل كقنبلة موقوته في عقلي.. وقد انفجرَتْ! إلهي!

الأسقف كونراد كريمنجز: ولدي، الله سيغفر لك، لا شكّ في هذا. لا يمكن أن تُلام على أفاعيل عقلك الباطن، ولا يمكن أن تعتبر الكنيسة فعلتك خرقًا لقوانينها.

الأب جيمس هالوران: ربما لم تمر الكنيسة بشيء مثل هذا من قبل.

الأسقف كونراد كريمنجز: لا تقلق..

الأب جيمس هالوران: أواثقٌ أنت؟ فكر جيدًا.. لو أن العقل الباطن لرجل دين خرق قوانين الكنيسة، فهو إذًا لا يملك السيطرة الكاملة على ذاته، وإن كان لا يملك السيطرة على ذاته فالاعتراف سيصبح مجرد تمثيلية هزلية! فكر جيدًا نيافتك!

الملازم فرانك بيراردي: أريدك أن تأتي معي إلى قسم الشرطة يا سيدي.

-15-
يد الرب

لطالما كره جريجوري الثلج، فجماله مؤقت. فبعد أن يسحر الأعين بزخاته الهشة البيضاء، يتحول إلى مساحات من القبح المُحبط، الجامد، المشوب بالتراب والقاذورات. ويصبح زلقًا مؤذيًا، كأنما يهبط من نعيم الله إلى جحيم الأرض.

يسير فوق الثلوج متجهًا إلى باب مسكنُ القساوسة، يحمل بين ذراعيه مشتروات وهدايا عيد الميلاد المجيد، تُثقل كتفيه ندف الثلج، وتتلعق بأطراف سرواله. دخل، خلع قفازيه وتذكَّر ألا يلوث المكان ببلله.

باغتته روائح القهوة والطعام الشهي. البرد والتسوق لهدايا عيد الميلاد قد فتحا شهيته. كان يعرف أن المائدة ستكون مُعدَّة خلال ساعتين، لكنه فكَّر في أن يطلب من السيدة فارلي شريحة من كعكة الفواكه مع كوبٍ من القهوة الآن.

حين طلب منها ما أراد، قالت له أنه بهذا سيُفسد شهيته، لكنها أعطته ما طلب. سألها:

- هل اتصل أحدٌ بي وأنا بالخارج؟

- السيدة بارلو فقط.

- حقًّا؟

- ستقيم حفل مساء السبت، وكانت تود لو تحضر حفلها. قالت إنها ستعاود الاتصال بك.

- سأعمل قليلًا في المكتب، سيدة فارلي. نادِني حين يجهز العشاء.

- بالتأكيد يا أبتاه.

حمل كعكته والقهوة إلى المكتب باسمًا، مُتعجبًا من مكالمة السيدة بارلو. فمنذ أن ثبت خطأ ظنها في سبتمبر، وهي تحاول التملق والتقرب من جريجوري ودعوته على العشاء أو التجمعات المختلفة، ولم يقبل جريجوري أيًّا من دعواتها.

بعد أن أكَّد سوء ظنها، ووقف أمامها بقوة وثقة وهي تحترمه وتعتبره مساويًا لها في السلطة والمكانه. لكن جريجوري لم يُحب أبدًا تجمُّاعتها أو حفلاتها.

جلس جريجوري في مكتبه يأكل الكعكة، ويُخرج بطاقات المعايدة التي وصلته في غيابه، كان أولها مكتوبًا على مظروفها: فرانك بيراردي والعائلة. كانت صداقة قد نَمَتْ بينه وبين المُلازم بعد أن انقشعت الغُمَّة، وقد اكتشف أن شخصياتهما متفاهمة ومنسجمة للغاية.

بطاقة أخرى وصلت جريجوري من بورس جلينكانون، كتِب على ظهرها: أتمنى أن نلتقي قريبًا. كان جريجوري قد تحدَّث مع جلينكانون في واحدة من تجمعات رعايا الإبرشية وقد توافق الرجلان كثيرًا رغم رفض جريجوري فكرة الاعتراف الكنسي عبر الديكتافون أو البريد الصوتي، كما رفضها سلفه الأب هالوران.

وأخيرًا، فضَّ جريجوري مظروفًا بلا أي علامات، مكتوب عليه: إلى جريجوري سارجِنت، بلا أي ألقاب. وكان يحوي ورقة واحدة من خامة رخيصة، مطبوع عليها مقطع من أغنية ريتشارد بودين «لندع الماضي جانبًا في موسم عيد الميلاد» وألحقها بعبارة: المسيح كان رجل سُلطة يهودي.

عرف جريجوري على الفور المُرسِل، وقرَّر أن يتصل به بعد موسم الإجازات، عازمًا على احتضان صانع المنشورات المُختل هذا والتعامل بحكمة مع مُعتقداته.

أخرج جريجوري من دُرج مكتبه دفترًا، وراح يدوِّن فيه ما طلبه الأسقف منه من ملاحظات حول طقس طرد الأرواح الشريرة الذي أجروه معًا. كان يدوِّن أيضًا استنتاجاته الخاصة المبنية على قراءاته حول هذا الطقس. كان يعبس حين يصل للأجزاء التي سيكتب فيها عن إيمانه بالشيطان ككيان حقيقي. الأسقف سيدقق في هذه العبارات ويبحث فيها عن أي بادرة شك أو هرطقة لدى جريجوري.

كتب جريجوري:

شيء واحدٌ واضح بالنسبة لي، أن جارث حاول معاشرة سوزان، وأقولُ حاول رغم أنه لا سبيل لي لمعرفة الحقيقة بالضبط. يبدو أنني أفضِّل أن أقنع نفسي أنها كانت مجرد محاول لا أكثر. قالت لي سوزان إنه ثمة يوم لا تذكر ما حدث فيه سوى أن أباها كان يخبرها كم يُحبها. يبدو -حسب ظني- أن تعبيره عن ذلك الحب قد اتخذ شكلًا عمليًّا غير مقبول، مما دفع عقل سوزان إلى حجب تلك الذكرى تمامًا.

يدعم شكي في كونه حاول اغتصابها، التوتر الشديد الذي أصاب جارث حين تطرق الحديث إلى ما حدث بينهما، ظلَّ يلعن الفتاة ويحاول أن يُسكتها.

ما لم تخضع سوزان لتحليلٍ نَفسي عميق، أو تنويم مغناطيسي، لن يمكننا معرفة ما حدث تفصيلًا، فالوحيد الذي يعرف هو جارث، وقد مات.

السيدة فارلي تودني أن أساند رأيها بأن جارث هو الشيطان ذاته، ولا يهضم عقلها التفسير العقلاني الذي أطرحه. حاولت أن أخبرها أن الطب الشرعي أثبت سبب وفاة جارث، وأن كلام الأب هالوران بشأن استبدال الدواء بالخطأ كان صحيحًا، وأن الرجل كان يُصاب بنوبة قلبية بسبب توتره وخوفه من انكشاف أمر قتله لزوجته وتحرشه بابنته، فأخذ دواءً لم يساعده، ضِف إلى هذا أن البرق ضرب الأرض جواره، كل هذا أدى إلى توقف قلبه وموته. لكنها لم تقتنع.

ما لم أذكره لها هو أن حالة قلب جارث، وسبب موته، يسميها بعض الأطباء بحالة (يد الرب)، أو الموت الربَّاني. كانت لتحتار أكثر، فلم أشأ أن أزيد حيرتها.

في الأسبوع التالي لإنهائنا طقس طرد الأرواح الشريرة، زرت سوزان في بيتها قبل أن تغادره لتقيم تحت رعاية الأب هالوران في ملجأ الأيتام. رأيت مكان الصليب الذي أزاله جارث عن حائط حجرة نومه، وسألت نفسي لمَ انتزعه؟ كان قد فعل هذا بعد وفاة زوجته. قلت له أنا إن فعلته ناتجة عن شعوره بالذنب تجاه قتله لزوجته، لكن أكان السبب هو عدم مقدرته على العيش بأفكاره وأفعاله الفاحشة تجاه ابنته تحت نظر يسوع المصلوب؟ هل كانت أفكار جون تالبوت هي ما دفعته للكُفر مثلًا؟

جارث لن يكون هنا ليُجيب تساؤلاتنا.

أنهى جريجوري آخر فقرات ملاحظاته، ثم شطبها إيمانًا منه بأن لا مكان للمشاعر والتهويمات في كتابه هذا.

أعاد الدفتر إلى الدرج، والتقط سماعة الهاتف، فقد آن أوان المعايدة على الأهل والأصدقاء. طلب رقم ملجأ الأيتام أولًا، وتحدَّث إلى الأب هالوران سريعًا، ثم جاء دور سوزان. سمعها تقول عبر الهاتف:

- أهلًا يا أبتاه.

- أهلًا بالآنسة الجميلة، عيد ميلاد مجيد سعيد.

- أشكرك، أتمنى لك الخير والسعادة.

- كيف حالك؟

قالت بصوت مضيء بالبِشر:

- بخير حال! ليس لديك فكرة كم أن الأب هالوران رائع، والمكان هنا ممتاز، ليت كل ملاجئ الأيتام مثله.

- لنأمل أن تكون باقي الملاجئ مثله وأفضل.

- الأب هالوران يدعني أساعده، فأقوم ببعض أعمال المكتب، وأكتب بدلًا عنه.. إلخ. يُبقني مشغولة أغلب الوقت، وتحضيرات الكريسماس تُهلكني!

- لكنك تحبين ما تقومين به.

- طبعًا. متى تأتي لزيارتنا؟

- قريبًا، أنا فقط مشغولٌ بعض الشيء. بعد عيد الميلاد سآتي لزيارتكم، قبل بداية العام الجديد.

- ممتاز. لدي ما أقوله لك.

- ماذا تريدين أن تقولي؟

- انتظر حتى تأتي.

- كلا، أخبريني الآن.

- حسنًا.. بعد عام ونصف، سأبلغ الثامنة عشر كما تعرف، ولن أصير يتيمة تأويها الملاجئ. سيكون عليَّ أن أغادر الملجأ وعليَّ أن أفعل شيئًا بحياتي. ظللت أفكر كثيرًا، وتحدَّثت مع الأب هالوران. سأدرس الطب. ما رأيك؟

- جميلٌ. عمومًا أغلب الطبيبات اللاتي قابلتهن في حياتي لم يُكن في جمالك، أعتقد أنك ستكونين أجمل طبيبة في البلدة.

ضحكت سوزان وقالت:

- ربما يتعدى الأمر حدود البلدة، أنا أفكر في بعثات إلى أفريقيا أو أي مكان يحتاج إعانات طبية.

- فكرة ممتازة. لكن إن حاول طبيب وسيم ذكي تغيير رأيك، فلا تعاندي كثيرًا!

ضحك جريجوري وقهقهت سوزان، أضاف أخيرًا:

- أراكِ لاحقًا، باركك الرب.

- شكرًا يا أبتاه، وداعًا.

اتصل جريجوري برقم أخته، رن الجرس لوهلة، وحين رُفِعت السماعة، سمع صوت صخب أطفال، وصوت التلفاز، ثم أخيرًا تحدَّث مع أخته لدقائق، وجاء دور زوجها الذي هتف:

- عيد ميلاد مجيد سعيد يا جريج.

- عيد ميلاد مجيد سعيد يا بيل، الأوضاع صاخبة للغاية لديك.

- كل شيء حتمًا سيمُرّ، لأضع منوِّمًا في طعام الأطفال مثلًا! أخبرني، هل تذكر حين اتصلت بي في سبتمبر تسألني عن معلومات لأجل حالة غريبة لديكم؟

- أجل.

- وهل عرفتم ممَ كانت تعاني الفتاة؟

صمت جريجوري لثوانٍ. هل عرفوا فعلًا مما كانت تعاني الفتاة؟ لم يُدرك جريجوري أنه يقول:

- أجل، كان الشيطان مُستحوذًا عليها، وقد أخرجوه. هي بخير الآن. عيد ميلاد مجيد سعيد مرة أخرى يا بيل...

بعد أن أغلق الخط، ظلَّ جريجوري يحدق في الهاتف لدقائق، تتردد كلماته في عقله مرارًا. كان الشيطان مُستحوذًا عليها، وقد أخرجوه.. أقالها بهذه البساطة؟

ببطءٍ، طلب رقم الأسقف.

***

كان الأسقف مُثقلًا بمشاكل موسم الأعياد بالإضافة إلى عدة مشاكل أخرى، منها مشكلة التصريح لزوجين بأن يُشغلا الموسيقى أثناء مراسم زواجهما في الكنيسة، وهو أمر غير مُستساغ، فغير مسموح للرهبان بسماع الموسيقى، فما بالك بسماعها داخل الكنيسة. فكَّر الأسقف في الطريقة التي سيشرح بها كل تلك الأمور المُعقدة، حتى رن جرس الهاتف وأخبرته مُدبرة منزله أن الأب سارجِنت يريد مكالمته.

- جريجوري! عيد ميلاد مجيد سعيد يا ولدي!

- شكرًا، نيافتك. عيد ميلاد مجيد سعيد.

- كيف الأمور في إبرشية الملاك ميخائيل؟

- على خير حال، أنا على رأس قائمة مدعوين تجمعات السيدة بارلو دائمًا.

ضحك الأسقف قائلًا:

- هذا تقدُّم ملحوظ!

- أجل. شارفتُ على الانتهاء من كتابة مُلاحظاتي.

- ممتاز، خُذ وقتك.

- هاتفت الأب هالوران، وتحدَّثت إلى سوزان، وهي بخير.

- وهل بدا لك الأب هالوران.. سعيدًا؟

- أعرف ما تعنيه. لا أستطيع أن أؤكد لك، لكني أرجِّح أنه قد نجح في دفن عقدة الذنب تلك في ركنٍ من أركان عقله. لا أعتقد أنه سيُشفى منها كليةً، لكن ما وصل إليه هو أقصى ما نتمناه.

- لم يُشفَ أحدٌ منَّا كليةً مما حدث. الأب هالوران قد زرع بذرة مُقلقة للغاية في نفوسنا ليلتها. فكرة أن الراهب قد يخرق سر الاعتراف بلا وعي منه، وأن كلنا مُعرَّض لأمر كهذا.. أيمكن لرجل عاقل أن يُنكر احتمالية تكرار حدوث شيءٍ كهذا؟

قال جريجوري:

- تذكَّرت حُلمًا حلمت به في الفترة القاسية التي مرت علينا. حلم غريب كنت أخبر نفسي فيه أن اللعنة ليست مقصورة فقط على مُرتَكِبي الآثام، فمن يخطر على قلبه أو عقله أو لاوعيه الشر، مُذنب كذلك. لاهوتيًا ما أقوله لا يجوز، لكن ذلك المفهوم لا يغادر عقلي.

- بالضبط.. لكنني أصلي يا جريجوري، أصلي من أجل الأب هالوران ومن أجلنا جميعًا.

ثم ساد صمتٌ قَلِق، حتى قال جريجوري:

- تحدث إلى زوج أختي منذ قليل.

- زوج أختك؟

- الطبيب النفسي.

- تذكرته.

- وشيء غريبٌ حدث..

صمت جريجوري مرة أخرى، قال الأسقف:

- ماذا حدثَ يا بني؟

- أتساءل إن كان في مقدورك إخباري أمرًا، نيافتك.

- إن كان في استطاعتي.

- أستطيع أن أفسر كل شيءٍ حدث هنا في سبتمبر تفسيرًا طبيعيًّا. أعني، الصليب يحرق ذراع سوزان؟ تورُّم وجروح نفسية. الاستحواذ نفسه؟ جنون. الصوت والمصطلحات الغريبة الذي كانت تتحدث بها؟ هو تفريغ لصور وأحداث اختزنتها من الأفلام والكتب. الفتاة مثقفة رغم كل شيء. معرفتها بمن يقرع الباب؟ صدفة بحتة. ربما كان اتهامها لأبيها زورًا. هل عالجناها؟ من يعرف، ربما تحسنت بفعل التطهير النفسي الناتج عن الطقس واعترافها بما يخيفها. ربما لم نعالجها قَط. وأخيرًا العاصفة، أهي من مكائد الشيطان أم مجرد صدفة حتى لو لم تتنبأ بها الصحف؟ ألم يخطئ رجال الطقس من قبل؟ وبالرغم من كون العقل يستطيع تفسير كل ما حدث، قلت لزوج أختي إن الفتاة كانت مُستحوذٌ عليها! هذا يعني أنني أؤمن بأن هذا هو التفسير الصحيح!

في رفق قال الأسقف:

- هذا هو ما أردت سماعه يا ولدي، هذا ما كنت أنتظرُ منك.

- أنا أؤمن بكل هذا، أتفهم؟ يبدو أنني بالفعل أؤمن أن الشيطان استحوذ على الفتاة ونحن طردناه. أؤمن أن كل ما حدث كان ذا طبيعة خوارقية رغم أن لدي تفسيرات عقلانية. كيف أؤمن وأشك في نفس الوقت؟!

- لا تقلق كثيرًا يا جريجوري. اقبل ما تشعر به، فإجابة سؤالك صعبة للغاية. ربما كنت مؤمنًا من البداية.

- ولمَ كنت أشك وأتردد وأُغضِبك مني إن كنت مؤمنًا من البداية؟!

- لا يهم التفسير. ربما تعرف الحقيقة منذ زمن وكتبتها في مقال من مقالاتك وأنت لا تعلم ما وراءها ولا مغزاها. ولم أعرف أنا كذلك ما وراءها حتى الآن.

- ما وراء ماذا؟

- يدُ الرب أمضى من حد السيف.. والإيمان أسبق في القلوب من الشك.

انتهت المُكالمة دون أن يُفسِّر الأسقف أكثر. ثم قام إلى النافذة ورمق الثلج ينزل من السماء وهمس: حمدًا لله..

(تمت بحمد الله)

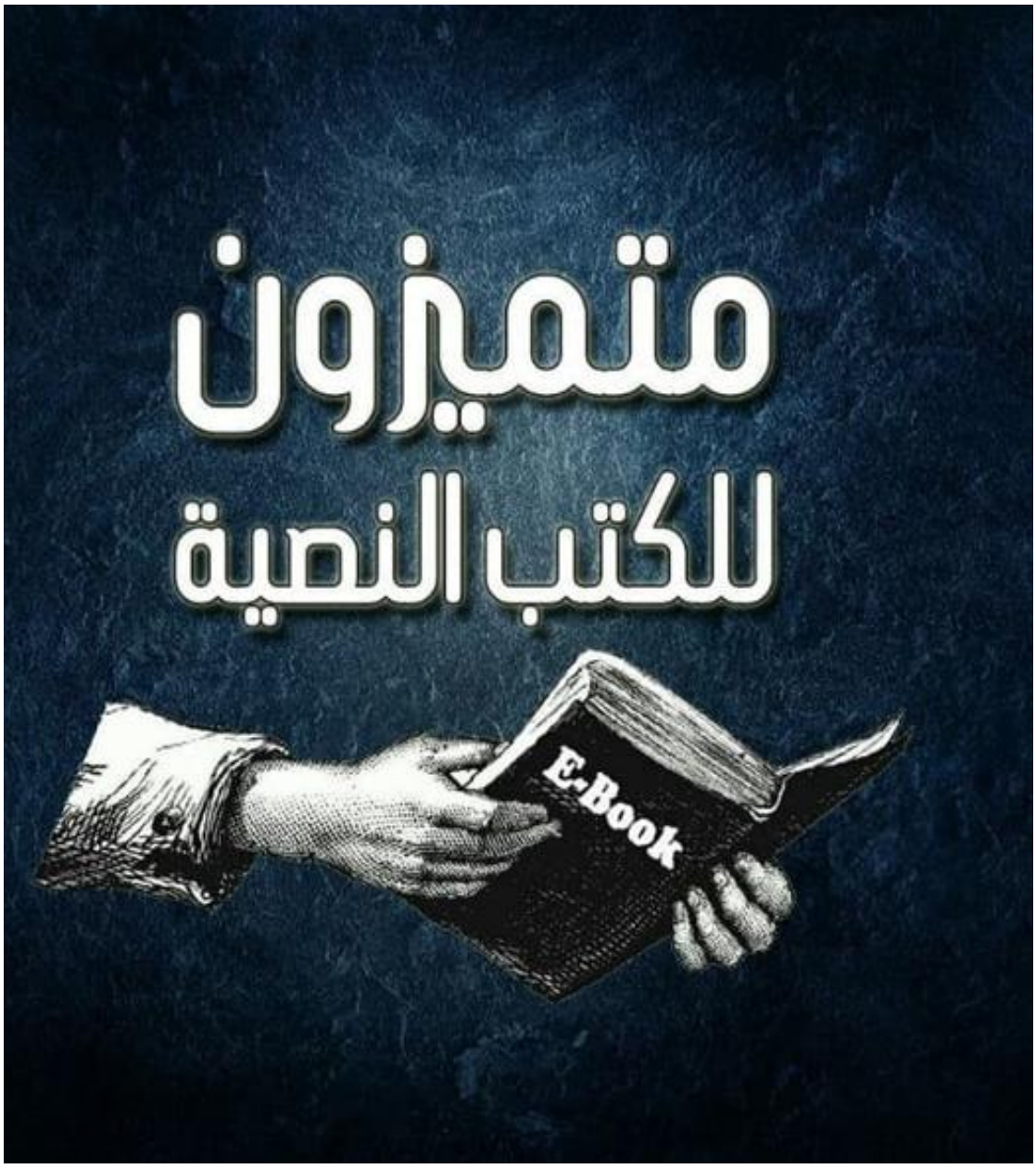
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

-1-

وجهي منتصف الليل

-2-

نيرانٌ سوداء

-3-

أكلَ أطفاله جميعًا عدا ثلاثة

-4-

دم المُتَبَتِّل

-5-

صليبُ الآلام

-6-

زوجة الكاهن مكسورة الظهر

-7-

العهد

-8-

دخول إبليس

-9-

الجحيم مُوحِل

-10-

لا تسعَ لمعرفة المزيد

-11-

همسات الواشي

-12-

قطعُ الألسنة

-13-

هو من يقرع الباب

-14-

القنبلة تحت الفراش

-15-

يد الرب